دراسات غربية

إريك غريلو

فلسفة اللغة

ترجمة وتقديم: عفيف عثمان



فلسفة اللغة

فلسفة اللغة

إريك غريلو

ترجمة

د. عفيف عثمان

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-104-0

[٢٠١٨م - ١٤٣٩هـ]

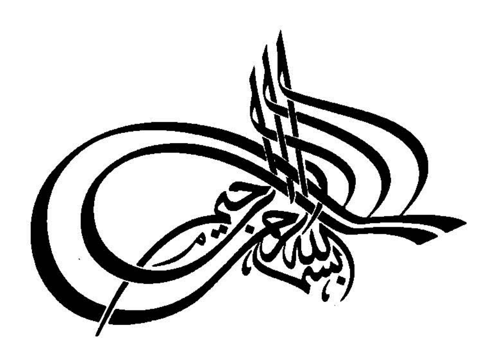


العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org

تصميم:
زينب ن ترمس

إخراج فني
إبراهيم شحوري

طباعة
DB UK 00961 3 336218
شركة دبوق العالمية للطباعة والتجارة العامة ش.م.م.
info@dboukart.com





المحتويات

توطئة ٩

الفصل الأوّل: ما هي فلسفة اللغة؟ ١٣

الفصل الثاني: في مصادر «المنعطف اللغوي» ٢٣

الفصل الثالث: زمن الإصلاحات ٣٥

الفصل الرابع: الورثة المباشرون: رسل وفتجنشتين ٤٧

الفصل الخامس: لحظة كواين ٦١

الفصل السادس: مقاومة وانشقاق ٧٥

الفصل السابع: عودة اللغة العادية ٨٧

الفصل الثامن: أوستن: كلمات من أجل الفعل ١٠١

الفصل التاسع: نظرية أفعال اللغة ١١٧

الفصل العاشر: أبعد من أفعال اللغة ١٣٣

توطئة



وصف أحد المؤرخين الغربيين القرن المنصرم بأنه «القرن العشرون الطويل»، فقد عَرَف حربين كونيتَين مدمرتَين، وشهد أيضًا أهم الانقلابات الفكرية في الفن والعلم، ونالت الفلسفة فيه أيضًا نصيبها، إذ أتت فلسفة اللغة التي عُدّت «ثورة البحث عن المعنى»، بمثابة انقلاب على الميتافيزيقا، أو الفلسفة الأولى كما وضعها أرسطو، وأنكرت أن تكون محبة الحكمة «نظرة شاملة للعالم» أو إمكان تحقيق أي تصور كليّ له، وأن عليها أن تحل المصاعب الناجمة عن الاستخدام الخاطئ للكلمات فحسب. وهي لا تهتم باللغة بشكل رئيسي، بل إنها حديث فلسفي عن «اللغة» أو تفلسف حول اللغة، كما يقول صلاح عبد الحق في كتابه **التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد**[1].

أرادت هذه الفلسفة الجديدة أن تحاكي العلوم التي حققت تقدمًا ملحوظًا لجهة الدقة والوضوح والضبط. فقد رغب الفيلسوف النمساوي لودفيغ فتجنشتين (وهو من أبرز وجوه هذا التيار الفلسفي) بلغة مضبوطة يمكنها تمثيل الواقع. وفي عرفه فإن «هدف الفلسفة هو توضيح الأفكار»، وإنه «يجب السكوت عما لا نستطيع الكلام فيه» كما يقول في **الرسالة المنطقيّة الفلسفيّة**.

ركّز فتجنشتين، وأقرانه لاحقًا، النظر في اللغة باعتبارها وسيلةً لفهم تكوين المعنى في الخطاب، إذ لا سبيل إلى فلسفة التفكير والمعرفة والفهم من دون اللغة: كل شيء يحدث داخل اللغة، وهذه الأخيرة «سُمّ يمكن استخدامه للإغواء والتضليل والسحر، ولكنها أيضًا ترياق، وذلك عندما نتحدث بصدق». لم يعد المهم بالنسبة للفلسفة والمنطق، كما يرى عبد الرزاق بنُّور في قراءته لفتجنشتين، أن نبيِّن ما هي القضايا الصادقة والكاذبة في علاقتها بالواقع، بقدر ما يهم النحو باعتباره ما سيمكّننا من تمييز القضية ذات المعنى من القضية عديمة المعنى، فالفلسفة هي قبل كل شيء مقاومة الفتنة التي تحدثها فينا بعض أشكال التعبير كما يقول فتجنشتين في «الكراسة الزرقاء»[2].

والحال هذه، وبسبب من المناهج الجامعية العربية، فقد انصرف بعض الأكاديميين والباحثين إلى الاهتمام بفلسفة اللغة – وتاليًا بالوضعية المنطقية والفلسفة التحليلية – ونقل ما تيسر منها إلى لغة الضاد، بيد أن الحصيلة في المجمل كانت ضئيلةً، وفي هذا السياق يمكن أن نُشيد ونشير إلى الجهد الذي بذلته مجلة **العرب والفكر العالمي**. وفي السنوات الأخيرة حدثت «يقظة» في اتجاه الترجمة، كان لفلسفة اللغة و«اللسانيّات» نصيب الأسد منها، بمبادرة من المنظمة العربية للترجمة تحديدًا.

ترجمة كتاب **فلسفة اللغة**، الموجز والكثيف لإريك غريلو (Éric Grillo)[3]، الأستاذ في جامعة باريس الثالثة (السوربون الجديدة)، إنما يهدف إلى تقديم خدمة للطالب الجامعي، وإضافة لبنة إلى المعمار الفكري العربي التائق إلى النهوض مجددًا، من باب الترجمة.

عفيف حيدر عثمان



هوامش

(1) صلاح إسماعيل عبد الحق، **التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد** (بيروت: دار التنوير، 1993).

(2) راجع: لودفيغ فتجنشتين، **تحقيقات فلسفية**، ترجمة وتقديم وتعليق عبر الرزاق بنُّور (بيروت: المنظّمة العربيّة للترجمة، 2007).

(3) للمصدر الأصليّ:

Éric Grillo, La philosophie du Langage (Paris: éd. Seuil, col. Mémo, 1977).



الفصل الأوّل

ما هي فلسفة اللغة؟

1. محاولة توضيح ما هي فلسفة اللغة؟

أ. المفهوم الواسع



لنأخذ تعبير «فلسفة اللغة» بالمعنى الواسع، والذي يتوافق مع المفهوم الشائع الأكثر استخداما. إنه يشير إلى كل فلسفة تعرّضت في أثناء تطورها إلى مسألة اللغة وتناولتها بشكل منفصل.

فبالنسبة لهذه الفلسفة، تصبح اللغة ولوقتٍ الموضوعَ المفضلَ للبحث. بهذا المعنى، يمكننا القول إن الاعتبارات الخاصة باللغة والتي تمثل ما هو جوهري في «محاورة كراتيل» (Cratyle)[1] تحدد فلسفة اللغة عند أفلاطون.

تاريخ الفلسفة من أفلاطون إلى فوكو مليء بأمثلة مماثلة. ولكن المقاربة لسؤال اللغة تتم بطريقة جانبيّة. بمعنى أنه لا تعطى له الأولوية مقارنةً بالموضوعات الأخرى، ولا يكون موضوعًا رئيسيًا للتساؤل الفلسفي. واللغة عمومًا عرضة لمقاربات متعددة.

- المقاربة «الخارجية»: وذلك بالعمل على اللغة، ليس في ذاتها ولذاتها، ولكن في علاقاتها مع حقيقة أخرى: هكذا تناول ديكارت اللغة في علاقتها بالفكر والعقل، أو روسو الذي طرح سؤال أصلها وفصلها وألحّ على بُعدها الاجتماعي، أو أيضًا هيغل الذي اهتم بعلاقات اللغة بالثقافة.

- المقاربة «الداخلية»: يمكن تناول اللغة من وجهة نظر «داخلية»: من أجل تحليل طبيعتها، وأواليات اشتغالها وسلطاتها.

وثمة من يؤالف بين المقاربتين في بناء واحد، كما يشهد على ذلك مثل أرسطو الذي عرض للغة في تنظيمها الداخلي وفي علاقتها بالواقع (المنطق)، وفي بعدها الجمالي (الشعرية)، وفي اشتغالها الاجتماعي (الخطابة).

ب. المفهوم الضيق

إذا أخذنا تعبير «فلسفة اللغة» في مفهومه المحدد، فإنه يشير إلى تيار رئيسي في الفلسفة المعاصرة، مهيمن في العالم الأنجلو-ساكسوني. برز هذا التيار الفكري في فجر القرن العشرين المنصرم من خلال انقلاب في النظر أُطلق عليه «المنعطف اللغوي» (Tournant Linguistique, Linguiguistic turn) والذي كان مطلوبًا منه المساهمة في التجديد العميق في مفهوم الفلسفة وفي ممارستها في آن معًا.

2. طريقة جديدة في التفلسف

أ. جذرية

هذا النوع الجديد من المقاربة وُسم بالجذرية لأسباب عدة. بدايةً، من الرغبة في القطع التي أظهرها الآباء المؤسسون لهذا التيار (فريجه، رسل، كارناب)، الراغبون في الانتهاء من نوع من «الانحراف» (derive) في الفلسفة تجسد في أعينهم بالميتافيزيقا الموروثة من القرون المنصرمة. وإذا كان نقد الميتافيزيقا ليس جديدًا، فإن الطريقة التي أرادوا انتهاجها هي كذلك وتتصف بالجذرية. فلم يعد التعرض



للأنظمة الفلسفية بسبب من مبادئها أو فرضياتها ولا حتى بسبب آثارها المحتملة، ولكن وفي الظاهر على لغتها. ففي اللحظة التي نطرح فيها وبشكل صارم ودقيق سؤال معنى القضية التي تولدها، نكتشف أن هذه الأنظمة الميتافيزيقية ليست إلا خليطًا من شبه الملفوظات (pseudo-énoncés) «خالية الدلالة». يبدو الأمر مختزلًا على هذا النحو، ولكن الرغبة في القطع لدى المنظرين الأوائل قادتهم إلى هكذا جذرية، وقد اقتضى تسجيل ذلك حتى نكون على بيِّنة من الخلفية السجالية التي انبثقت عنها فلسفة اللغة المعاصرة.

ب. طرائق جديدة

الموقف الجذري للمؤسسين يتبدى أيضًا في وجهتَي نظر: في نمط تناول اللغة والمكانة التي تبوأتها، وفي سؤال الدلالة داخل العمارة الفلسفية. إن نمط التناول الذي تخضع له اللغة هو ما يشرح الجدة في توجيه الضربات إلى الميتافيزيقا القديمة، موضوع النقد، لا إلى «مادتها» بل إلى «لغتها». فلوصف تعبير فلسفي ما بأنه «خالٍ من الدلالة» (dépourvue de signification) يجب امتلاك معيار نحاكم على أساسه الملفوظات، وهذا المعيار مستعار من «المنطق الجديد» الذي تطور بسبب أزمة أسس الرياضيات والذي وضع في تصرف المفكرين أدوات غير مسبوقة: نظرية الأسوار(Théorie de la quantification)[2]، ونظرية الدلالة الأصلية (المعنى الحرفي) (Théorie de la denotation)، ونظرية الأنماط (Théorie des types)[3]، وحساب العلاقات (calcul des relations)[4]. وهو قدر من الأدوات التي تسمح بالتحليل المنطقي للملفوظات (énoncés) والتي كانت حتى اللحظة عصيةً على التناول.

ج. أفق جديد

- اللغة في موضع المتهم

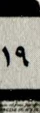
إذا كان اللجوء إلى التحليل المنطقي يسمح بتفسير وحتى تبرير «جذرية» البدايات، فإن المكانة والدور الذي تبوأته اللغة وسؤال الدلالة هو ما يسمح بالحديث – في شأن فلسفة اللغة الجديدة – عن انقلاب فعلي.

وقد عرفت الفلسفة الكثير من الانقلابات في تاريخها، فبعد الدوام المديد والبطيء للأرسطية داخل الفلسفة المدرسية (السكولائية) وتبعية الفلسفة للّاهوت، ومن ثمّ أتى ديكارت ليقوم بالقطع ويحرر الفلسفة من الوصاية المزدوجة للّاهوت والقياس المنطقي (syllogisme)، ويؤكد على حق الفلسفة في الإبداع (l´invention). وبعد قرن تقريبًا، أتى «الانقلاب الكوبرنيقي» لكانط ليشيد المبادئ القبلية للمعرفة ويضعها في صف الشروط المكونة للموضوعات التي تستتبعها لنفسها. وما يمكن ملاحظته، أنه وإلى منعطف القرن العشرين، لم تكن اللغة موضوعًا أو صانعًا للانقلاب المقترح. بل على العكس، كانت في منأى عن النقد الأكثر جذرية.

والحال، فإن التحليل المنطقي الذي نزعم إخضاع اللغة له من الآن وصاعدًا، يُظهر في ذاته إبهامًا لا يقبل الشك ومصدرًا للأخطاء غير المدركة الآن، داعيًا إلى نقده ومطالبًا بإصلاحه.

- أفول التمثيل (le déclin de la représentation)[5]

كشف الاهتمام الجديد باللغة أن سؤال الدلالة أكثر جوهريةً من سؤال التمثيل، وأن التمثيل لا يصنع اقتصاد العلامة (l'économie du signe)، ويقتضي الأمر إذًا، ومن أجل فهم كيف يقوم الذهن



(L'ésprit) بالتمثيل ببساطة، أن نفهم أولًا كيف تدلّ العلامة (comment le signe signifie).

والحال هذه، فقد ارتقت اعتبارات العلامات (La considération des signes) إلى مصاف «الفلسفة الأولى»، وأعيد صوغ الأسئلة التقليدية «الكلاسيكية» للفلسفة، وأصبح المنطق الأداة المفضلة للبحث.

3. فلسفة أو فلسفات اللغة؟

أ. وحدة برنامج

تمتاز فلسفة اللغة إذًا عن الفلسفات السابقة بـ: طبيعة المشروع وخصوصية الطريقة. وهو ما يميزها أيضًا عن التيار الظاهراتي (courant phénoménologique) المعاصر بدوره. فمن دون شك، تطرح الظاهراتية للوهلة الأولى سؤال الدلالة ولكن لأجل أن تنصرف إلى التحليل ووصف الأفعال والتي بواسطتها يضفي الوعي القصدي على العلامات (signes) دلالتها (signification)، من منظور يبقى خاصًا بفلسفة الوعي أكثر منه باللغة.

فلسفة اللغة، في المفهوم المحدد (الضيق)، تتميز بكونها تيارًا فكريًا يتحدد بامتلاكه وحدة مشروع وطريقة (Unité de projet et de méthode) ويشكل منذ منعطف القرن إحدى نقاط الأوج في البانوراما الفلسفية.

ب. في تنوع المساهمات

بيد أن هذه الوحدة، الحقيقية إلى حد ما، تبقى نسبيةً في الفلسفة،

كما في أي حقل آخر، حيث تخضع المشاريع للتعديل والتطوير، وتتنوع الطرائق وتضبط أكثر وتتحدد المنظورات، من دون أن يسود عدم الانسجام أو اللغو. ولا يعود غريبًا أن مؤلفين متباعدين في الظاهر، مثل فريجه (Frege) وأوستن (Austin) وكارناب (Carnap) أو سيرل (Searl)، ينسبون أنفسهم إلى فلسفة اللغة.

وهذه ليست إلا إشارةً إلى أن المحاولات الأولى في «علم الدلالة المنطقي» (La sémantique logique) وصولًا إلى المساهمات الأكثر راهنية للتداولية (La pragmatique) تُعبر عن إشكالية متماسكة ولكن بتشعبات متعددة، مُنظِمة (أي الإشكالية) التنوع في المساهمات وخليط النصوص في داخل وحدة البرنامج، والذي يعود إلينا إعادة تركيبه في تماسكه الداخلي وتطوراته المتعددة، ملتزمين جانب وضوح العرض واحترام تطور الإشكاليات عوضًا عن التتبع الزمني للمؤلفات.

ج. جردة

وفاقًا لما سبق، يبدو ملائمًا لإيضاح التمايزات تبني الحل الآتي: نتحدث عن فلسفات للّغة لوسم المقاربات السابقة على «المنعطف اللغوي» ونخصص اصطلاح «فلسفة اللغة» للمساهمات اللاحقة على «المنعطف اللغوي» والتي تنسب نفسها إليه وترتبط به، لأن تعدد المساهمات يسمح باستشفاف وحدة برنامج وترابط إشكالية، وحتى بعض التقارب في الطرائق، لا نظير له في الفترة السابقة.



هوامش

(1) انظر: أفلاطون، **محاورة كراتيليوس**، ترجم المحاورة وقدم لها بدراسة تحليلية عزمي طه السيد أحمد (الأردن: منشورات وزارة الثقافة، 1995). المترجم.

(2) التسوير (Quantifier): عملية في المنطق الرياضي تربط متغيرات الموضوع أو القضايا المتغيرة أو المحمولات المتغيرة في الدالات المنطقية المختلفة، بحيث تكون تعبيرات تتميز تمامًا وبصورة محددة بقيمة الصدق أو الكذب. انظر: **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة سمير كرم (بيروت: دار الطليعة، 1981)، الصفحة 251. المترجم.

(3) نظرية تراتب الأنماط (Theory of Types): منهج لبناء المنطق الرياضي توضع بواسطته تفرقة بين الموضوعات ذات المستويات المختلفة والأنماط، ويهدف هذا المنهج إلى استبعاد المفارقات أو التناقضات من المنطق ونظرية الأعداد. وكان أرنست شرودر أول من وضع نظرية الأنماط وطبقها على منطق الفئات (1890)، وفي الأعوام 1910 - 1908، بنى برتراند رسل نسقًا تفصيليًا من نظرية الأنماط وطبقه على حساب الاحتمالات. وهو يقوم على أساس التفرقة - طبقًا للأنماط - بين الأفراد (نمط 1) والصفات (نمط 2) وصفات الصفات (نمط 3) إلى آخره. كذلك أدخل رسل تقسيم الأنماط إلى رتب. وليست نظرية الأنماط سوى واحدة من المناهج لإزالة التناقضات عن الأبنية في نظرية التعدد والمنطق الصوري. انظر: **الموسوعة الفلسفية**، الصفحة 536. المترجم.

(4) حساب القضايا (Calcul des Propositions): النسق المنطقي (انظر الحساب) الذي يشكل الاستدلال القائم على علاقات صادقة بين القضايا التي ينظر إليها في تجريد عن بنائها الداخلي القائم على الموضوع والمحمول. **الموسوعة الفلسفية**، الصفحة 182. المترجم.

(5) التمثيل (Représentation): بعبارات ماك كاي: «كل بنية (مثال أو صورة أو أنموذج) مجردة كانت أم ملموسة، تهدف سماتها إلى ترميز أو إقامة توافق بمعنى من المعاني مع بنية أخرى». نقلًا عن: أمبرتو إيكو، **السيميائية وفلسفة اللغة**، ترجمة أحمد الصمعي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005)، الصفحة 456. المترجم.



الفصل الثاني

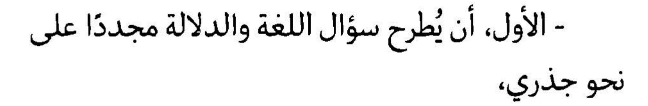
في مصادر «المنعطف اللغوي»

1. الوضع في منعطف القرن

كي تولد فلسفة اللغة كما نعرفها اليوم، وجب تضافر ثلاثة شروط:



- الأول، أن يُطرح سؤال اللغة والدلالة مجددًا على نحو جذري،



- والثاني، أن يُطرح في عبارات جديدة أو حسب متطلبات جديدة،

- والثالث، أن يرتدي طابع الإلحاح المحض بحيث يحشد مفكرين من آفاق مختلفة حول المشكلة نفسها.

والحال، اجتمعت هذه الشروط الثلاثة في منعطف القرن العشرين. وفي أواخر القرن التاسع عشر وقعت سلسلة من التغيرات في حقل المعرفة، بشّرت بإعادة تشكيله.

أ. بلبلة الميتافيزيقا

إن الريبة المتنامية بإزاء الأنظمة الميتافيزيقية الموروثة من الفلسفات

الكلاسيكية والحديثة والتي عمرت طويلًا بواسطة الكانطية والهيغيلية خصوصًا، هي التي عرّضت سؤال المعنى لنار النقد. إذ ارتفعت أصوات من كل الأنحاء للتنديد بالجدل الفارغ والخالي من المعنى في الأنظمة الكبيرة المنتمية إلى الماضي. وحتى عند كُتاب على غرار بيرس (Pierce)، اعتُبر أنه لا يمكننا ولا يجب علينا استبعاد الميتافيزيقا، ولكن يجب أن لا نقبلها إلا بعد إصلاحها كما ينبغي، وذلك في نقطتين:

- **ضمان أفضل للتحقيق الميتافيزيقي:** وهو إصلاح يتعلق في المقام الأول بـ«المصدر» الذي تصدر عنه الميتافيزيقا، ولا يعود علينا من الآن وصاعدًا البحث عنه في حدس فلسفي مميز، على طريقة ديكارت، بل في تحليل منطقي للفكر، أمين في هذا من دون شك للإلهام الكانطي، ولكن متسلّحًا بأدوات منطقيّة لا يمتلكها.

- ... **وطرائقه:** وهو إصلاح يمتد إلى طرائق الميتافيزيقا من خلال استلهامها تلك الخاصة بالعلوم الوضعية. بمعنى أن نضع في مواجهة التوجه التأملي (speculative) للميتافيزيقيا القديمة، التوجه الوضعي لميتافيزيقا محددة في طموحاتها وادعاءاتها بحواجز ثلاثة: المنطق (La logique) والمراقبة (L´observation) والتجربة (l´expérience)، وعندها تكف قيمتها عن أن تكون بمثابة تبرير وحيد لنظام العالم، كي تكون ضامنةً للطابع الشرعي والعملياني في آنٍ لمساراتنا المعرفية الموجهة نحو المعرفة والفعل.

ب. تحولات العلوم الصورية

هذا المنطق، الذي هو أحد النوابض (المحركات) الرئيسية لإصلاح



الميتافيزيقا يجد نفسه في الآن عينه في خضم انقلاب.

- **الطابع الرياضي المتزايد:** أولًا، بتأثير تضافر جهود كل من دي مورغن (De Morgan) وبول (Boole) وبيرس خصوصًا، تخلّى المنطق على نحو متزايد عن نموذج قواعد اللغة (le modèle grammatical) لمصلحة النموذج الرياضي (le modèle mathématique)، ففي اللحظة التي أقرّ فيها بأن الشكل القانوني لتحليل الحكم «s» هي «p» (كل «و» هي «ح»، بمعنى و=موضوع (sujet) وح = محمول (prédicat)) غير عمليّ في كثير من الحالات، بدءًا من أحكام «العلاقة» (Relation)، كان اتجاه المناطقة نحو الرياضيات، المتآلفة أكثر مع هذا النوع من الملفوظات.

- **النزعة المعادية لعلم النفس:** وفي الوقت نفسه، كانت محاولات تقعيد المنطق على أسسه الخاصة به، بتمييزه قدر الإمكان عن علم النفس، لدرجة وسم أي شرح لقانون أو عملية منطقية-رياضية استعارت، ولو قليلًا من علم النفس، بأنها غير مناسبة. من هذه الحركة المزدوجة، التي حررته من علم النفس وقرّبته من الرياضيات، وهي نموذج صارم وذو دقة علمية، بدا أن المنطق خرج معززًا.

- **دور بيرس (Pierce):** حين يتعلق الأمر بتنقيح الميتافيزيقا، وبالتلازم معها المنطق، لا يمكن تجاهل الدور الحاسم الذي اضطلع به بيرس، وندين له أيضًا أنه بإدخاله فكرة علم عام لعلامات السيميوطيقا (السيميائية = sémiotique/ علم العلامات) ساهم في خلق السياق الجديد الذي سيُمكن في داخله إعادة تعريف سؤال المعنى.

2. بروز سؤال جذري: ماذا يعني الدَّلُّ بالعلامات؟

أ. فكرة سيميوطيقا عامة

ندين لبيرس بإدخال وفرض متزايد لما يمكن أن نطلق عليه اسم «براديغم سيميوطيقي» (paradigm sémiotique)، أي الاقتناع بأن سؤال الدلالة (signification) لا يصح طرحه ودرسه إلا في سياق نظرية عامة للعلامات. وهذا يعني في نظر بيرس نظريةً قادرةً على أن تتناول بشكل موحد غالبية العلامات، من أي طبيعة كانت.

- **تعميم**: في المقام الأول التعميم؛ بالانتقال من اللغة إلى العلامة فإننا نمد سؤال الدلالة على مجمل الأنساق الرمزية، وهكذا يمكننا توحيد حقل التحقيق حول مدلولية (signifiance) العلامات عمومًا.

- **جذرية**: فسؤال معرفة ما هي العلامة قد تغيرت طبيعته بسبب تعميمه على مجمل العلامات. فبدلًا من التمييز بين العلامة الطبيعية والعلامة المتفق عليها (signe institué) حيث الأولى «تقلِّد» الشيء المدلول عليه (signifiée)، والثانية تستند إلى الاصطلاح، أحلّ بيرس بدلًا من ذلك تحليلًا للدعوى السيميوطيقية (le procès sémiotique) يتوقف فيها عمليًا التمييز عن أن يكون ملائمًا: طبيعيًا كان أم اصطلاحيًا. تبقى العلامة دائمًا في قلب دعوى تتركب من عبارات ثلاث: [1] أساس (un fondement) بواسطته العلامة هي علامة؛ [2] المظهر أو الصلة الذي «تتقاطع» به مع الموضوع (objet)، موضوع (أو شيء) تحيل العلامة إليه، أو يحل محلها؛ [3] التعبير (interprétant)[1] أو قاعدة بحسبها العلامة محددة في كونها علامة لهذا الموضوع.



- **تقسيم السيميوطيقا:** بما أن المسار السيميوطيقي يتمفصل في ثلاثة أبعاد، ينجم عن ذلك أن علم العلامات له ثلاث شعب: أولًا، دراسة الشروط الصورية والتي بها على العلامة أن تكون علامة قواعد اللغة الصورية (grammaire formelle)؛ تاليًا، درس مختلف الصِّيغ والتي بحسبها تحيل العلاقة - وفقًا لطبيعتها - إلى موضوعها (المنطق)؛ وأخيرًا، درس الطريقة التي تحدد بها العلامة تأويلها أو تعبيراتها (ses interprétants)، البلاغة النظرية (Rhétorique speculative). والحال، فهذا التقسيم الثلاثي الذي أعاد تفسيره موريس (morris) عام 1938، أوجد التمييز الشهير بين «النحو» (علم المبنى/ syntax)، والسيمانطيقا (علم الدلالة/ sémantique) والتداولية (pragmatique)[2]، والذي انتصر في فلسفة اللغة المعاصرة وفَعَلَ على نحو ما تطورها الداخلي.

ب. أثر «أزمة الأسس»

حصلت الأزمة بسبب اكتشاف «المتناقضات» (Antinomies) في نظرية المجاميع (Théorie des ensembles) حديثة النشأة الخاصة بكانتور (cantor) وأدت إلى هز الثقة التي منحت للرياضيات.

في ما يخص فلسفة اللغة

ذلك أن إعادة الصوغ الجذرية لمسألة الدلالة (والتي أتت منها فلسفة اللغة مباشرة) تجد جذرها في أعمال المناطقة والرياضيين الذين واجهوا في شكل واضح عدم اشتغال اللغة الرمزية التي اعتبرت إلى وقتها نموذجًا في الوضوح والصراحة والدقة. هنا واقعة أساسية في التأريخ للفلسفة المعاصرة للّغة: ليس بخصوص

الأسئلة التي جيَّرتها لحسابها فحسب، ولكن في شأن المفاهيم التي اصطنعتها والطرائق التي استخدمتها. هذه كلها تحمل علامة هذا السياق الخاص في البروز، أقله حتى الأعمال التي أنجزها فتجنشتين (1958 - 1889) في طوره الثاني.

ما أتت به

الأثر الأول والمباشر أنها جعلت المناطقة والرياضيين حساسين إزاء سؤال المعنى. وهذا لا يعني أنهم لم يعرفوه أو تجاهلوه في السابق. ولكن «المتناقضات» ظهرت بحدة بحيث أن لغة مُهذبة مثل الرياضيات وصارمة مثل النظام الاستنباطي لم تكن في منأى عن عدم الكمال وبقيت معرّضة لإنتاج تعبيرات رُباعية (Tératologique)، ووجب في العقود التالية بذل جهد مُعتبر في التوضيح حمل على طبيعة العلامات وقواعد توليفها والعمليات التي يمكن تطبيقها عليها، وشروط اليقين (أو الصدق) (vérité) وخصائص الأنظمة التي تتيح بناءها، باختصار، حول ماذا يعني الدَّلُّ بالعلامات (c'est que signifier par signes)، وفي خلال هذه الورشة رأت النور بعض المقولات الأساسية وبعض المشكلات الجوهرية الخاصة بفلسفة اللغة.

من السيميوطيقا إلى فلسفة اللغة

للانتقال من الدراسة النقدية للأنظمة الرمزية، والتي أخذت مكانها، إلى فلسفة فعلية للّغة كان ينقص إنجاز خطوة. خطوة تتلخص في توكيدين: الأول، أن العلامات لا تهم في حد ذاتها بقدر ما تحمل

أو تُعبر عن أفكار أو مضامين فكر، ذلك أن القواعد التي نفرضها على استخدامها وعلى اشتغالها هي في الواقع (de facto) مذهب علمي (discipline) نفرضه على الفكر، وبه ومن خلاله تصبح المعرفة ممكنة فحسب. الثاني، أن دراسة العلامات لا تنحصر في التحقيق المخصوص حول موضوع معطى (أو شيء محدد)، بل إنها أولية (principielle): ففي كل تحقيق، إن معرفة وفهم اشتغال اللغة التي تعلن المشكلة عن نفسها من خلالها هو في جانب منه حلها وأحيانًا أخرى فضها.

عودة المعنى، مشاركة فلسفية

نلاحظ أنّ التيارَين الرئيسيِّين في فلسفة القرن العشرين، أي الفسلفة الظاهراتية (la phénoménologie) والفلسفة التحليلية (la philosophie analytique)، وُلِدا بالتوالي في السياق نفسه وبمناسبة المشكلات نفسها. فمن جهة، افتتح إدموند هوسرل (E. Husserl 1859-1938) في كتابه **فلسفة الحساب** (1891) نوعًا جديدًا من الأسئلة وسمه هو بكونه وصفًا ظاهراتيًا، ومن جهة أخرى وضع فريجه (G. Frege 1925- 1848) في **أسس علم الحساب** (1884) ركائز علم الدلالة المنطقي (La sémantique logique) وبين الاثنين، التقاء على بضع نقاط (رفض الصورية، رفض - متأخر عند هوسرل - للنزعة النفسية، الاقتناع بأن البحوث المنطقية الرياضية يمكن أن تؤدي إلى توضيح قوانين الفكر المحض)؛ وأيضًا اختلافات عميقة.

الدرب الظاهراتي

مسارٌ مؤسس ذلك الذي انتهجه هوسرل وطموحه الوحيد إيضاح موضوعه أي الرياضيات في زمنه.

وثمة وجهتا نظر ممكنتان في هكذا مشروع: النظام (systéme) والعملية (operation) ومال هوسرل لهذه الأخيرة. وعندما نقارب الحساب (l´arithmétique) من وجهة نظر العملية، لا يعود في مقدورنا فَصل مضامين الأفعال (les contenus des actes) ولا فصل تابع (أو تسلسل) العلامات في خلال بروزها في إطار تجربة العد (L´expérience du compter).

والحال، فلا يمكن العثور على الأساس الوحيد في هندسة النظام العملياني وحده، ولكن يجب البحث في جهة الأفعال التي يستخدمها الوعي القصدي في هذا القطاع من تجربته. فهذه تُضفي في المقام الأخير على مثالات (idéalités) الرياضيات معناها. ففي هذه المكانة التي آلت إلى الذات (sujet)، يندفع هوسرل في درب فيلسوف الوعي ذي الإلهام الترانسندنتالي (المتعالي)، بدلًا من فلسفة اللغة.

الدرب التحليلي

المنطق قبل كل شيء آخر: مال فريجه على العكس نحو وجهة نظر النظام. فريبته من علم النفس جعلته يُبعد أي إحالة إلى الذات، وحتى في وسم خصائص الفكر. فلا يهمه إلا تلك المكونة المنطقية المحضة للفكر، والتي تبقى واحدة رغم التعبيرات المتغيرة



والتلوينات المتعددة التي يمكن أن يرتديها. الصدق (la vérité) وحده ما يهم المنطقي، وفي ترتيب الفكر الصوري، فإنها تستند بكليتها على صلاحية البرهان.

خلاصة

ليس «الخروج» من النظام هو ما يؤمن تأسيسه، ولكن الجهد في عدم ترك أي إبهام (Opacité)، في ما خص العناصر أو صيغ توالدها أو قواعد توليفها أو مبادئ تقويمها. يأخذ التأسيس حينها مظهرًا يختلف عن السابق: عند هوسرل، يفترض الوصف الدقيق لأفعال الذات العارفة، ولا تلتزم عند فريجه بأكثر (ولا بأقل ... أيضًا) من بناء لغة مثالية (كاملة) (Langue parfaite).

أخيرًا، تبدو فلسفة اللغة المعاصرة الوريثة المباشرة لمشروع فريجه.

هوامش



(1) أي الصورة الذهنية التي تصدر عن المعبِر (interprète). المترجم.

(2) يترجم عادل فاخوري مصطلح Pragmatique/ Pragmatics بعلم التداول، وهو مشتق من كلمة pragmatism التي تعني المذهب الذرائعي المعروف في الفلسفة؛ وتفسير ذلك أن هذا الأخير هو أكثر من ركز انتباهه على العلاقة بين العلامة والذين يستعملونها، وأكد على أهمية هذه العلاقة في فهم النشاط الذهني. ويقول فاخوري إنه مع ذلك، من حيث إن pragmatics هو مصطلح خاص بالسيمياء، يجب عدم الخلط بينه وبين pragmatism. انظر، عادل فاخوري، **تيارات في السيمياء** (بيروت: دار الطليعة، الطبعة 1، 1990)، الصفحة 81.

والحال، تعد التداولية مبحثًا من مباحث الدراسات اللسانية، يدرس كيفية فهم الناس وإنتاجهم لفعل تواصلي أو فعل كلامي في إطار موقف كلامي ملموس ومحدد. وتميز التداولية بين معنيَين في كل ملفوظ أو فعل تواصلي لفظي: الأول هو القصد الإخباري أو معنى الجملة، والثاني هو القصد التواصلي أو معنى المتكلم. المترجم.



الفصل الثالث

زمن الإصلاحات





في بدايتها، أطلقت الفلسفة التحليلية[1] ريح الإصلاح العاصف على الفلسفة، وكل القسمات التي ميزتها (قطع مع الميتافيزيقا التقليدية، إبعاد علم النفس، أوليَّة العلامة، خضوع كل تحقيق لتحليل لغوي) وحدَدَت ومن دون أدنى شك طريقة جديدة في التفلسف، وقد تبدت مكوناتها المختلفة هذه في الأعمال المؤسسة عند فريجه (Frege).

1. ما هي اللغة المثالية؟

كانت اهتمامات فريجه خاصة بفيلسوف للعلوم، وخصوصًا العلوم المنطقية-الرياضية. واذا اهتم باللغة، فبتلك التي كان بإمكان العلم التعبير عن قضاياه بها. والحال، فإن لغة «من أجل العلم» لها مقتضيات متشددة أكثر من لغة التواصل العادية. همها الوحيد هو الصدق (la vérité)، وعليها أن تقصي من داخلها كل ما يحول دون تحقيق هذا المطلب الأساسي.

أ. التغلب على نواقص اللغات المحليّة

ذلك أن معظم الموارد التعبيرية في اللغات الطبيعية موسومة بأنها غير جديرة بالثقة، بسبب الإبهام (opacité) الذي تضعه في الخطاب، والتي على «اللغة من أجل العلم» أن تتخطاها. ثمة مصدران مضران من الإبهام:

- **الإبهام المرتبط بالدفق المعجمي:** الغنى المعجمي إحدى ميزات اللغات الطبيعية، لكن هذا الغنى مصدر عدم دقة بسبب تعدد استخدامات العبارة. على سبيل المثال، تستخدم اللغة الطبيعية من دون تمييز العبارة نفسها للإشارة إلى تصور (الإنسان حيوان عاقل)، وإلى الفرد الإنسان الذي غزا بلاد الغال (La Gaule). عدم الدقة هذا يقود إلى غموض مزدوج: بين الفرد والتصور من جهة والأخطر بين تبعية (أو تعلق) التصورات (subordination de concepts) (الحالة الأولى)، وبين اشتمال (subsomption) أو إثبات هوية الفرد تحت تصور (الحالة الثانية) من جهة أخرى، وهي علاقات منطقية منفصلة.

- **الإبهام مرتبط بمرونة التسلسل (التتابع):** تضاف إلى الشائبة الأولى شائبة أخرى مضرة أيضًا، مرتبطة هذه المرة بالتسامح في المضمر (la tolérance à l'implicite) التي تظهرها اللغات الطبيعية، ومن آثار ذلك أن يترك في الظل، وحتى أن تخفي المحركات الحجاجية او البرهانية التي تحكم تسلسل القضايا، ما يطعَن في صدقية النتائج المحققة. ستتميز «اللغة المثالية» التي ستستخدم في التعبير عن العلم بدقة العبارات التي ستكون موضوع تحديد بيِّن واستخدام واضح تحدده بدوره قاعدة بيِّنة. وعليها أيضًا أن تجعل بيِّنة العمليات



التي تتشكّل بموجبها القضايا وتتولد الواحدة من الأخرى.

ب. المشروع الإيديوغرافي Idéographique (منظومة الكتابة الإيحائية)[2]

لتلبية هذه المقتضيات، على«اللغة المثالية» أن تكون في آن اصطناعية ورمزية، فكل علامة، بحسب نمطها ستكون موضوع تحديد صارم وتخضع لقواعد دقيقة، فما هو مطلوب لغة صحيحة تعبر عن الأحكام، وتضمن اليقين بقدر من الوضوح التام. ولهذا السبب، فإن الرمزية التي أنشأها فريجه هي الكتابة الإيحائية (أو التصويرية).

من الرمزية إلى منظومة الكتابة الإيحائية

اللغة الإيحائية عند فريجه ستكون رمزية بطبيعة الحال (الوضوح والدقة) وأكثر صرامة في إلزامها من الرمزيات الموجودة وتحديدًا جبر بول (Boole)[3].

أدخل فريجه في رمزيته متغيرات من الأفراد (غائبة في نظام بول) وعزز لزوم حفاظ المعنى على نفسه، مانعًا أيّ علامة من تلقي تفسيرين، كما هو الأمر عند بول، حيث أن العلامة (+) تشير إلى عملية الجمع الحسابي، أو المجموع المنطقي. المكسب إذًا هو في آنٍ/ الدقة والموارد التعبيرية. وقد أدخل فريجه أيضًا إلى لغته وظائف ذات طبيعة ثانوية، مطلوبة للتعبير عن الأحكام التي تحمل عددًا (nombre)، وفي وسعها معالجة وجودها بمواردها التعبيرية والتوليفية. تقرن اللغة الإيحائية سمتين، أنها عملية حسابية (calcul) وصُوَرَ (رموز) (Caractéristisque).

الكتابة الإيحائية حساب

إنها عملية حسابية بسبب الطابع الآلي الألغوريثميّ (Algorithmique) لتسلسل القضايا الذي تجيزه وتتحكم فيه. فالتطبيق المتكرر لعدد متناه من القواعد في شطر متناه من المراحل يتيح «حساب المتواليات» (calcul de la conséquence) الذي يجعل صحيحًا خلال البرهان، قضايا تولدت من جراء النظام. لكن هذا الطابع يبقى متلائمًا مع مفهوم «صوراني» للرمزية، يرى فيها محض لعبة على الرموز، وهو المفهوم الذي يرفضه فريجه بقوة.

الكتابة الإيحائية رموز (صُوَر)

ستكون الإيديوغرافيا (الكتابة الإيحائية) عند فريجه من دون فائدة إذا اقتصرت على كونها لعبة على الرموز. إنها بالحري التعبيرُ عن الفكر بوساطة الرموز. لأن صيغ اللغة الإيديوغرافية تملك معنى (sens) ودلالة أصلية (ذاتية) (denotation)، إنها تُعبر عن أفكار، وبهذا وحده تحقق الهدف المنشود من المشروع الإيديوغرافي، أي التعبير عن «قوانين الفكر المحض».

2. مساهمة فريجه في علم الدلالة المنطقي

ما أضفى على فريجه صفة «الأب» في التراث التحليلي ومرجعًا أساسيًا في فلسفة اللغة ليس تحقيقه الجزئي للحلم القديم في «اللغة العالمية» (أو العامة caractéristique universelle = الخصائص الكلية) بل تفكره المنطقي الذي قاده إلى إقامة تمييز



تصوريٍّ جديد، ما تزال خصوبته تثبت نفسها في أعمال الذرائعية المعاصرة (أو التداولية)[4].

أ. دالة (function) وتصوّر (concept)

تجاوز أرسطو

نذكر تحليل القضية في المنطق الكلاسيكي (الصوري)، إذ تتضمن موضوع ومحمول، يُسميَّان المفاهيم. ويمكن لهما أن يتبادلا الموقع في داخل القضية: فعبارة «الإنسان» يمكن أن تظهر بمثابة موضوع في «الإنسان فانٍ» وتظهر مثابة محمول في «اليونانيون هم أناس».

وهنا نجد أحد محركات القياس.

والحال، ولأن فريجه لم يعد ينطلق من المفاهيم ولكن من القضية، ويقر بوجود قضايا أخرى غير تلك الخاصة بمقولات أرسطو، فإنه لم يعد يقبل هذا التحليل.

تحليل جديد للقضية

عند فريجه، قضية مثل «سقراط هو فان» تُحلل في قسم ثابت ولكن غير مكتمل، فتصير عبارة «{...} هو فانٍ» هي الدالة (Fonction)، فيما يمكن لقسم متغيّر له أن يملأ المكان الشاغر للدالة، بما يتيح الحصول على قضية في مثالنا، «{...} هو فانٍ» للدالة بدليل، وبخصوص قيمة (valeur) سقراط في هذا الدليل، فإن الدالة تعبر عن قضية يقينية. في هذه الدالة، حيث القيمة دائمًا قيمة اليقين، هي ما يسميه فريجه تصوّر (concept).

ب. المعنى والدلالة الأصلية

مشكلة أحكام الهوية

أثناء نظره في مقولة المساواة في معنى الهوية توصل فريجه إلى اقتراح هذا التمييز. فأحكام الهوية تأخذ شكلان: «أ = أ» و «أ = ب»، الأولى لا تمثل أي مشكلة لأنها تساوي الشيء مع نفسه، أما الثانية فإنها أكثر إفادة وأدق في التناول. أكثر إفادة لأننا نمنحها قيمة فعلية في نماء المعرفة: ففي الواقع، إن حكم «نابوليون هو المنتصر في إيانا»: يُعلمني أكثر حول نابليون من الحكم البسيط «نابليون هو نابليون». وأكثر دقة، لأننا نجد في جانبي العلامة «=» تعبيرين مختلفين، والسؤال هو معرفة على ماذا تُحمل المساواة؟

تحليل فريجه

إذا تمسكنا بأن المساواة تُحمل على العلامات المأخوذة على أنها مجرد علامات تصويرية (graphiques)، فإننا لا نضع في الحسبان الطابع الإخباري (Informatif) للحكم. إذا قلنا إن المساواة تُحمَل على موضوعات تدل على نفسها بـ «أ» و «ب»، في حين «أ = ب» لا تقول شيئًا غير أن «أ = أ». في الواقع، يتضح أن التعبير «أ = ب» لا يكون شرعيًا وإخباريًا إلا بشرط الإقرار أن العلامات «أ» و«ب» تدل (تقرر) حقًا على الشيء نفسه، ولكن لهما «معاني» مختلفة.

الهوية قد أقيمت، لأن الدلالة الذاتية متطابقة في الحالتين، والطابع الإخباري قد أُعطي باختلاف معاني التعبيرات المستخدمة. كما نرى في المثال الشهير «نجمة الصباح هي نجمة المساء»، التي تحمل معلومتان عن الجسم السماوي نفسه.



في كل علامة علينا أن نقْرن معنى ودلالة أصلية (denotation)، فالمعنى يتصف كما يقول فريجه بأنه «صيغة منح» الإحالة (المرجع أو الإسناد) (mode de donation de la référence).

ج. جردة

بَسط التحليل الدالي (l'analyse fonctionelle) على اللغة، فتح فريجه درب علم الدلالة المنطقي الذي يمكن تطبيقه وإنجازه على اللغات الطبيعية. ولن ينسى ورثته البعيدون ذلك أبدًا.

هوامش

(1) philosophie analytique، تيـار واسـع الانتشـار - متنوع إلى حـد ما - يوحد جماعـات واتجاهات وفلاسـفة. كلهم يعتبـرون مهمة الفلسـفة تحليل اللغة. والفلسفة التحليلية أكثر انتشارًا اليوم في الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا. يدعو لها مؤيدو التجريبية المنطقية والبراجماتية الجديدة: وكوين، ن. غودمان، ومورتون هوايت. وما يميز معظمهم أن مركز الثقل ينتقل عندهم من المسـائل المعرفية العامة إلى الأشـكال والوسـائل العينية لتحليل اللغـة. ويمكن تمييز نهجين رئيسيين:

1- بناء لغـات «نموذجيـة» مصطنعة ذات بنيـان منطقي محدد تحديـدًا دقيقًا (التجريبيون المناطقة، والبراجماتيون الجدد وعدد من التحليليين المستقلين). وهذه الأبحاث تقوم على أساس المنطق والسيمنطيقا المنطقية.

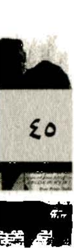
2- الدراسة التاريخية للّغات الطبيعية القائمة (الفلسفة اللغوية). المترجم.

(2) Idéographique، منظومة الكتابة الإيحائية ويرمـز من خلالها للكلمة بعلامة واحـدة غريبة عن الأصـوات التي تكـوّن الكلمة نفسـها، وهـذه العلامة إنما ترجع إلى كلية الكلمة، ومن هنا إلى الفكرة التي تعبر عنها بشـكل غير مباشـر. إن النمـوذج التقليدي لهذه المنظومة هو الكتابة الصينية. فرديناند ده سوسـرُّ، **محاضرات في الألسنية العامة**، ترجمة يوسـف غازي ومجيد النصر (بيروت: دار نعمان للثقافة، 1984)، الصفحة 42. المترجم.

(3) ترجع بدايـات «جبر المنطـق» إلى الرياضـي الإيرلندي جورج بـول (- 1864 1815) الذي أراد إقامة المنطق على نموذج علم الجبر، وقد اسـتطاع بذلك فتح الطريق أمام ولادة المنطق الرياضي. ولأجل ذلـك، قام بول بعدة خطوات لعل من أهمها: اسـتخدام الحروف الهجائية كرمـوز للأصناف، والأصناف عند بول بديلة عن الحدود في المنطق الصوري.

- الاسـتعانة بالعمليـات الحسـابية كالجمع والضـرب.. وغير ذلـك، في إقامة المعادلات المنطقية.

- إقامـة القضايـا المنطقية على صـورة معـادلات جبرية تعبر عن مسـاواة بين طرفيها.



للتوسع، انظر: رشيد الحاج صالح، **المنطق واللغة والمعنى في فلسفة فتجنشتين** (دمشق: دار كيوان للطباعة والنشر، 2005)، الصفحة 19. المترجم.

(4) الذرائعية (التداولية) المعاصرة (أو الجديدة) هي التي تجمع بين الذرائعية والوضعية الجديدة والمثالية اللغوية (التحليلية اللغوية عند س. و. موريس. والإجرائية عند ب. و. بردجمان، والتفسير الذرائعي للمنطق الشكلي عند س. آي. لويس ور. كرناب وو. كواين) ومبدأ الذرائعية في شكل عام يحدد قيمة الصدق بفائدته العملية. انظر: **الموسوعة الفلسفية**، إشراف روزنتال، ترجمة سمير كرم (بيروت: دار الطليعة، 1981)، الصفحة 217. المترجم.



الفصل الرابع

الورثة المباشرون: رسل وفتجنشتين



وجدت أعمال فريجه امتدادًا لها في عمل رسل (B. Russel 1970-1872) وبدأ ميراث المنطقي الألماني يؤتي ثماره ويعدل مساره في آن. وقد أثمر بفضل استئناف رسل ووايتهيد (Whitehead 1948-1861) لاحقًا للبرنامج المنطقي والذي ذهبت به مبادئ الرياضيات (principa mathematica) (1913-1910) إلى أبعد ما يمكن. وقد عدل في المسار مبينًا خصوبته أبعد من المجالات التي تدخل فيها فريجه. ما يفسر جزئيًا انتقائية رسل، واهتمامه بنظرية المعرفة، واقتناعه في كل أبحاثه بأن أفضل دليل للتحليل المفهومي هو المنطق الجديد.

1. من المنطق إلى المعرفة

تمثل نظرية المعرفة، ضمن الأعمال الضخمة لرسل، موضوعًا متكررًا وهي بمثابة خيط موجه لسائر الأفكار.

فمن الأعمال الأولى في المنطق الرياضي ظهر الاقتناع بأن التحليل المنطقي يتجاوز في مداه ميدان الرياضيات وحده والمنطق

المحض، ولكنه يَهُم في المقام الأول العلم والفلسفة، فكل واحد منهما يجهد على طريقته لتحقيق معرفة العالم: العلم بوساطة النظرية والشرح الناموسيِّ (Nomologique)[1]، والفلسفة باقتراحها على النحو الافتراضي مفهومًا للعالم يُدرج المساهمات المتعاقبة للعلوم الوضعية ويعتبر نفسه امتدادًا لها.

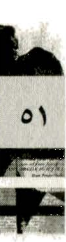
اقتنع رسل بأن المشاكل الكبرى التي تواجهها الفلسفة الكلاسيكية في شكل جدالات زمنية (الواقعية ضد المثالية، الواحدية ضد التعددية، المادية ضد الروح، وما شاكل) يمكن إعادة صوغها وتوضيحها باللجوء إلى التحليل المنطقي الذي يبرهن بأن كثيرًا من مواقف الفلسفة التقليدية أتت نتيجة مباشرة للقواعد السيئة للّغة (mauvais grammaire).

أ. وسائل الإصلاح

شفرة (أو مبدأ) أوكام (Le Rasoir d'ockham)

إن القواعد السيئة للّغة هي التي قادت، في الواقع، الفلسفة الكلاسيكية إلى التيه الميتافيزيقي، وخصوصًا في مسألة الأنطولوجيا (نظرية الوجود). إذ إن قواعد اللغة قادتنا إلى التفكير أن جملًا مثل «سقراط فيلسوف»، «أوليس واسع الحيلة»، «المربع الدائري غير موجود»، هي عبارات تُسنِدُ صفة إلى الموضوع. ما يلزمنا بأن نعتبر سقراط وأوليس والمربع الدائري موجودات (أو كيانات) (entités) من الطبيعة نفسها وموجودة جميعها.

وفي مواجهة هكذا زيغان، أعاد رسل تفعيل المبدأ «الأوكامي»[2] القديم الذي يوصي «بعدم مضاعفة الموجودات (أو



الوحدات) من دون ضرورة»، وسيجد ذلك تعبيره وتطبيقه الأولي في نظرية الأوصاف (La Théorie des descriptions).

نظرية الأوصاف

صيغت النظرية لأول مرة عام 1903، وعدلت عام 1905 في المقال الشهير «في الدلالة» «on denoting» والذي أصبح «نموذجًا للتحليل». واجهت نظرية الأوصاف سؤال تثبيت الخطاب المنطقي في الواقع بوساطة تحليل «التعبيرات ذات الدلالة الذاتية» (expressions dénotantes). الإشارة إلى شيء (موضوع) تأخذ طريقين: اسم العَلَم (le nom propre) الذي يشير إليه مباشرة (اليزابيت)، والوصف الذي يعطي سمات تصورية (ملكة إنجلترا).

ولكن كيف يمكن الأخذ في الحسبات تعابير مثل: «المربع الدائري غير موجود»، أو «الملك الحالي لفرنسا أصلع»؟

يتعلق الأمر بملفوظات (énoncés) حيث يظهر تعبير «فلان وفلان» (le tel et tel) الذي يبدو أنه مُحمّل بحمولة مرجعية في إشارته إلى الوحدة المعنية والتي هي في الوقت نفسه «موضوع» القضية. ولكن الحال ليس كذلك. لأن تعبير «فلان وفلان» يمكن استبعاده من خلال شرح مُسهب يوقع الاشتغال المنطقي في حيرة. ففي المثال الثاني الآنف الذكر «يوجد فرد واحد، هو ملك حالي لفرنسا وأصلع في آن». لكن، وبما أنه لا يوجد «ملك حالي لفرنسا»، فإن الرابط كاذب، من دون الحاجة إلى المصادرة على «وحدة غير موجودة» كموضوع للقضية. فمسألة التعيين (الإشارة) تتحول إلى تحديد مسار قيم المتغير، من دون المطالبة بفرضية أنطولوجية (وجودية) محددة.

ب. تعديلات

أسماء العلم والأوصاف

لكن ما العمل عندما يظهر مكان الوصف تعبير ينتسب إلى فئة أسماء العَلَم (nom propre) مثل بيغاس (Pégase)؟

لا شيء قد تغير في الأساس، يقول رسل: فكل ملفوظ يأخذ بيغاس موضوعًا يمكن تحليله في «س مثل س حصان مجنح»، أي إنه لا يشير إلى أي موجود (entité) من أي طبيعة كان. فاسم العَلَم إذًا ليس إلا وصفًا مبتورًا، يمكن استبعاده بالتحليل المنطقي. فلا يبقى إذًا (أقله مؤقتًا) في صف «التعابير ذات الدلالة الذاتية» إلا «أسماء العَلَم المنطقية» وحدها، رموز تحيل مباشرة إلى موجود (entité) قائم ومُعطى في تعبير مباشر مثل «أنا» أو «ذاك».

المنطق ومبحث علم الوجود (الأنطولوجيا)

تُبين نظرية الأوصاف أن التحليل المنطقي يمكن أن يكون عامل اقتصاد أنطولوجي بكشفه عن البُعد القائم بين قواعد اللغة السطحية لملفوظ ما وبنيته المنطقية العميقة. في الأنطولوجيا المتكاثرة التي يظهر أن اللغة المستخدمة قد استقرأتها (من استقراء) (induit)، وقامت الفلسفة التقليدية بالمصادقة عليها، وأدخل المنطق مبدأ ثمينًا في «الاقتصاد في الفكر» (parcimonie) (أي تقليل الموجودات).

ولكن يظهر في الوقت نفسه نوع من تقييد للمنطق: فإذا كان في وسعه أن يبين لنا ما ليس مفترضًا وجوده، فلا يكفي وحده



ليُحدد نهائيًا «ما هو موجود». ولتناول هذا السؤال يجب الانتقال من المنطق المحض إلى نظرية المعرفة والتي بحسبها على المنطق أن يتحالف مع الحس المشترك، كما مع الفيزياء وعلم النفس، كي يحكم لمصلحة ما ثبُت لدينا في قضية المعرفة وفي مختلف الصيغ التي تُثبت نفسها فيها. يُغطي هذا البرنامج في جزء منه الذرية المنطقية.

2. الذرية المنطقية (L'Atomisme Logique)

ليس بعيدًا من الصواب تقديم الذرية المنطقية على أنها محاولة لإنشاء ميتافيزيقا (بمعنى «مفهوم عن العالم») لا تُعيبها اللغة العادية، أي إنها تعرف تجنب التكاثر الأنطولوجي وغموض الأنظمة القديمة. لهذا الغرض، يجب الأخذ في الحسبان في قضية المعرفة ما هو معطى وما هو مستنتج، مع الوقوف في الحالتين عند ما هو «نهائي»، أي لا يمكن تبسيطه أكثر (أو اختزاله).

أ. وقائع وقضايا

ماذا يعني أن «نعرف»؟

ما نعرفه هو الوقائع (des faits) والواقعة لها مكونات وبُنية، ويعبر عنها في قضية. «سقراط مات» تُعبر عن واقعة، مكوّناتها: سقراط (مُفرد) وخاصية تُناسب هذا المفرد. والواقعة تجعل القضية حقيقية. وعدد مختلف من القضايا يعبر عن وقائع ذات طبيعة مختلفة: «سقراط ليس بيننا» (واقعة سلبية)؛ «كل البشر فانون» (واقعة عامة)؛ «جان يعتقد أن سكوت هو مؤلف «Waverlay»»

(واقعة اعتقاد)... وغير ذلك. وأبعد من هذا التمييز، فإن علاقة الوقائع بالقضايا، وطبيعة هذه الأخيرة هي ما يهمنا هنا. وحول هاتين النقطتين يستعير رسل من فتجنشتين فكرتين رئيسيّتين.

استعارة من فتجنشتين

القضايا ليست أسماء، ولكنها رموز لوقائع. إنها تعبر عن وقائع، ولكنها لا تشير إليها. ففي مقابل كل واقعة هناك قضيتان، واحدة تجعل منها حقيقية (صادقة) (Vraie)، وأخرى تجعل منها كاذبة (Fausse) فالصلة القائمة بين القضية والواقعة إذًا من طبيعة مختلفة عن تلك التي تربط الاسم بمسمّاه.

وثمّة هوية بُنية (identité de structure) بين الواقعة ورمز الواقعة. وهذه الهوية التي ترافق مجمل القضايا من أي نمط كانت تُلزمنا التسليم بأن العالم مُركّب موضوعيًا (complexe) وهذا التركيب معكوس في القضايا المركّبة، شريطة أن تنتسب هذه القضايا إلى «اللغة المثالية» (Langue parfaite).

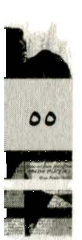
«اللغة المثالية» عند رسل

تملك ثلاث خصائص رئيسية تميزها عن اللغة العادية:

- كل كلمة في القضية تتناسب مع مكوّن واحد في القضية المُقابلة، باستثناء العبارات المنطقية «و»، «أو»، «إذا ... مع أن»، حيث الوظيفة مختلفة.

- لغة كهذه هي لغة تحليلية بالكامل، تظهر بنظرة واحدة البنية المنطقية للواقعة مُؤكَّدة أو منفية.

- إنها لغة نحوية محضة. مثل تلك التي سمحت «مبادئ



الرياضيات» بإنشائها. ما يجعلها جديرة بأن لا تُعد لغة، بسبب غياب المفردات. ولكن يكفي، في الواقع، إضافة مفردات إلى هكذا لغة للحصول على لغة منطقية مثالية.

ب. تحليل وفلسفة

تحليل وفهم

عند رسل، لا تنحصر مهمة الفلسفة في التحليل فحسب، فهي تبقى في خدمة مقصد جامع (visée compréhensive) يجب أن يسمح بصوغ رؤية مترابطة للعالم، بمثابة امتداد للمعارف الجزئية التي تضعها العلوم في تصرفنا. كيف يسمح التحليل بذلك؟ يشير لنا نص من عام 1924 بعنوان «الذرية المنطقية» بذلك: «على الفلسفة أن تكون جامعة (أو شاملة) (comprehensive) تملك جرأة صوغ فرضيّات خاصة بالكون، مع أن العلم ليس في وضع تأكيدها أو دحضها».

والحال، ففي خدمة هكذا فرضيات يعمل التحليل، لأنه يسمح خصوصًا: «[...] بنقد وتوضيح المقولات التي نعتبرها أساسية ونخاطر بقبولها من دون نقد، مثل روح، مادة، وعي، معرفة، تجربة، سببية، وقت». هدف التحليل هو السماح باستبدال هذه المقولات الغامضة ببنى منطقية «تقبض» على السمات الرئيسية من دون غموض، بطريقة تُعلي من شأن رؤية مترابطة، لا تزال مفترضة للكون. ومن هذا التوسيع «الميتافيزيقي» للتحليل، سيميّز فتجنشتين نفسه في **الرسالة المنطقية الفلسفية** (Tractatus logico- philosophicus) (1921) مع تبنيه لبعض أطروحات الذرية المنطقية.

3. الرسالة المنطقية الفلسفية

يشغل فتجنشتين مكانًا متميزًا في الفلسفة المعاصرة. درس الهندسة وتتلمذ على رسل وعمل معه، حاور مناطقة حلقة فيينا[د]، ووضع في **الرسالة** أولى أفكاره، المؤلّف الذي حياه رسل كحدث فلسفي.

أ. حَل الميتافيزيقا

خط العَلام

أخذ فتجنشتين مسافة من أطروحات رسل نفسها، وتجلى ذلك في مفهومين شبه متعارضين للممارسة الفلسفية. ففي الواقع، إن تحليل اللغة الذي روّج له رسل يسمح بإيضاح اشتغالها، فإن فكرة ميتافيزيقا خاضعة للإصلاح بقيت هي الأفق، مُوَكّلة للفلسفة مهمتها في آن، تلك المتميزة من العلوم. بيد أن تحليل اللغة والفهم الواضح لاشتغالها قادا فتجنشتين إلى حّل الميتافيزيقا، فبحسبه، وحدها علوم الطبيعة تحمل خطابًا معقولًا عن العالم. وكل محاولة أخرى، ومن ضمنها الميتافيزيقا، تخرق حدود اللغة، وتقع بالضرورة في اللا-معنى (non-sens).

القضية بمثابة قائمة (أو جدول) (tableau)

رأينا كيف استعار رسل من فتجنشتين فكرته أن القضية ليست اسمًا لواقعة، مع أنها تعبر عنها.

في تقصيه علاقة القضية بالواقعة، توصل فتجنشتين إلى



مفهوم يرى في القضية جدولًا للواقعة (tableau du fait) ولا يجب أن نفهم بكلمة جدول (أو قائمة) صورة بصرية بل بالأحرى «قائمة منطقية»، نموذجًا (un modèle): القضية قائمة لأن بنيتها تعكس تلك الخاصة بالواقعة مثل القضية. للواقعة مكونات يتشاكل ترتيبها مع مكونات القضية. هذا التشاكل في البنية (Isomorphisme de structure) يسمح بِعَدِّ علاقة القضية بالواقعة وفقًا لنموذج علاقة الإسقاط (d´une relation de projection).

ب. فِكر الحدود

حدود اللغة

تلاحظ الأطروحة الرئيسية في **الرسالة** أنه إذا كانت علاقة الإسقاط، هي التي يمكن للّغة عبرها وصف العالم وهو ما تفعله، ففي المقابل، واقعة الإسقاط لا يمكن وصفها في أيّ لغة. الإسقاط (la projection) هو ما يؤسِّسَ اللغة، ولكن هذه الأخيرة لا تملك أمر الحديث عنه، ولا يمكنها إلا إظهاره، وهي تعمل تحت عنوان ظرف الإمكان (condition de possibilité) ولأن ثمة تشاكلًا في البُنية بين القضية والواقعة فبوسع اللغة وصف العالم، ولكن التشاكل يمكن إظهاره ولا يمكن التعبير عنه. وعلى قاعدة هذه الفكرة الرئيسة، مضافًا إليها تعريف الشكل المنطقي للقضايا وقواعد تركيبها، يرسم فتجنشتين نوعًا من خرائطية (cortographie) لما يمكن وصفه وتفكره وهو ما يُسويّ أو يُعِدل الحدود بين المعنى (le sens) واللا-معنى.

حدود الفلسفة

والحال، فحتى الميتافيزيقا الخاضعة للإصلاح واصل فتجنشتين

عدّها إلى جانب اللا-معنى، لأنها تظهر كمحاولة من الخارج لرسم حدود اللغة والفكر، في حين لا يمكن رسمها إلا من الداخل، فهل التحليل وتوضيح اللغة في نظر فتجنشتين هما المهمتان ليس الشرعيتين فحسب ولكن الممكنتين للفلسفة؟ إذ إن كل سعي آخر نظير الميتافيزيقا وأيضًا الأتيقا (علم الأخلاق) أو الأستطيقا (علم الجمال) ستقودها (أي الفلسفة) في الواقع لما وراء دائرة المعنى. «الفلسفة ليست مذهبًا ولكنها نشاط»، كتب فتجنشتين، وخلُص إلى أن «حصيلة الفلسفة ليست عددًا من 'القضايا الفلسفية'، ولكن حقيقة أنه ثمة قضايا تَتَوضّح» (**الرسالة**، 112 - 4).



هوامش

(1) (Nomos) الناموس، أي الاعتقاد بأنه موافق للحقيقة، معترف به من الجميع. ويشير إلى ما هو متوافق مع القاعدة. المترجم.

(2) نسبةً إلى وليام أوكام، لاهوتي وفيلسوف إنكليزي من القرن الرابع عشر، اشتهر بمقولته «ينبغي أن لا يلجأ إلـى الكثرة والتعدد من دون ضرورة» (on ne doit pas multiplier les entités sans nécessités) وهـي المقولـة التي عرفت باسم «شفرة أوكام».

(3) حلقـة فيينـا (cercle de vienne) جماعة تكـوّن المركز الفكـري والتنظيمي للوضعيـة المنطقيـة. تطورت الجماعـة من حلقة دراسـية عام 1922 أسسـها موريتس شـليك (Morice Schlick) بقسم فلسفة العلوم الاسـتقرائية بجامعة فيينـا. ورثت الجماعـة أفكار نزعة ماخ كمـا تقبلت كثير من أفكار فتجنشـتين وخصوصًا مفهوم التحليل المنطقي للمعرفة، ومذهب الطبيعة التحليلية للمنطق والرياضة، ونقد الفلسـفة التقليديـة باعتبارها لغوًا. في عام 1929 نشـر كارناب ونيورات وهان بيانًا عنوانه «العلم الكلي لجماعة فيينا»، ما أكسبها شكلًا منظمًا ومحددًا. انظر: **الموسوعة الفلسفية**، ترجمة كرم، الصفحة 166. المترجم.



الفصل الخامس

لحظة كواين

يحتل كواين (Willard Quine 1980) داخل بانوراما فلسفة اللغة المعاصرة موقعًا أثيرًا وذلك لأسباب عدة. أولًا، بسبب عمره الفلسفي المديد الذي أهّله ليكون محاورًا مسموعًا من تيارات فلسفة اللغة الرئيسية. وتاليًا بسبب جذريته وثبات مواقفه. وتشهد على جذريته إرادة الذهاب بالطموح الإصلاحي عند الآباء المؤسسين إلى خلاصاته القصوى، ويشهد على الثبات ترابط مشروع لم تهز التعديلات المتتالية أيًا من أسسه النهائية.



1. ذروة الطموح الإصلاحي

أرادت الفلسفة التحليلية لنفسها أن تكون وقبل كل شيء محاولةً لتبديد الغموض (demystification). نضالٌ، كما يقول فتجنشتين، في مواجهة افتتان (انظر انسحار) ملكة الفهم عندنا بوسائل لغتنا. مع كواين، أصبحت المحاولة هي «نزع الأسطرة» (démythification) وأول أسطورة سيتعرض لها لن تكون إلا الدلالة (signification).

أ. أسطورة الدلالة

المشكلة

بحسب كواين، الدلالة مقولة غامضة تحملنا على اعتبارها وحدة (entité) مقترنة بكلمة أو تعبير من لغتنا، وسيكون «ما يوقر في ذهن المتكلمين عندما يتكلمون - وما رعى هذه الفكرة وأبقاها هو الاقتناع، الذي سبق ودافع عنه فريجه، بالطابع العام (public) والموضوعي (objecif) وهو طابع عادة ما ندافع عنه باستحضارنا لواقعتي الترجمة (la traduction) والترادف (la synonymie)». «الدلالة»، بحسب كواين، هي «ما يبقى عندما ننتقل من لغة إلى أخرى (الترجمة)، أو «المشترك» بين عبارتين مترادفتين». بيد أن الحجة لا تكون مقنعة، كما يقول كواين، إلا إذا توصلنا إلى شرح أن «ما يبقى» يكون متماثلًا (Ce qui demeure identique) في الحالتين. أي إذا توصّلنا إلى اشتراط معايير تماثل للدلالات، وهو ما يتخطى إمكاناتنا.

«الترجمة الجذرية»

يتعرض كواين للمشكلة من خلال تطرقه الى تجربة فكر. يتخيل عالم إناسة (أنتروبولوجي) وضع لنفسه هدف إنشاء معجم ترجمة للغة الشعب المحلي الذي يدرسه، في حين أنه بداية يجهل كل شيء عن تلك اللغة. عليه إذًا أن يضع قواعد اللغة وثَبتًا بالكلمات، من دون أن يكون في حوزته إلا مراقبة السلوك (الحركي واللفظي) للسكان المحليّين، مُرتبطًا بمنبهات حواسيِّة (Stimulation sensoreilles) متواترة أو خاصة ببعض المواقف. هذا «الاقتصاد في الفكر» الفائق هو ما يسم مشروع الترجمة هذا. على قاعدة المراقبة، يقيم عالم الإناسة علاقات متبادلة بين نُطق العبارة والسلوك المرافق.



أو مواقف تستدعي بعض أنماط المنبهات. مثل تعبير «gavagaï» الذي يلفظ حين يظهر الأرنب، أو أن بعض العلامات تشي بوجود أرنب: وبعد عدة حوادث متواقتة، يقترح عالم الإناسة تعبير «ها هو الأرنب» كترجمة لـ «gavagaï» بيد أن هذه الترجمة تصطدم بحدين كبيرين ولا يمكن تبسيطهما: أولًا، النسبية بإزاء الفرضيات التحليلية، التي ركبها عالم الإناسة بالضرورة على قاعدة المعلومة الفعلية الضعيفة التي يحوزها قبل أن يتمكن من وضع «gavagaï» مقابل «ها هو الأرنب».

إلى جانب أنه من المستحيل عمليًا فصل «دلالة» هذه المعلومة الجانبية، يبدو أيضًا أنه يمكن لفرضيات تحليلية أخرى - مع بقائها متوافقة مع السلوكات المعنية - أن تؤدي لترجمة أخرى، على سبيل المثل هذه»طريدة»، من دون إمكانية ترجيح أحدهما بالطرائق التي نملكها وحدها. لا محدودية الترجمة الناجمة عن ذلك (وهي النقطة الثانية) مسألة لا يمكن تبسيطها، فلا شيء يسمح لعالم الإناسة الوثوق بأنّ «gavagaï» تدل على عبارة «ها هو الأرنب» أو ترجح «هذه طريدة» أو أيضًا هذا ما يقوم مقام «الأرنب» (أي من صنف الأرنبيات). هذه الحلول المختلفة متوافقة تمامًا مع عناصر السلوك والمواقف التي استندت إليها الترجمة. والحال، يبدو أن أي محاولة لإقامة موازاة دلالية (sémantique) بين تعبيرين، سواء من خلال المرادفة (Synonymie أي intralinguistique = داخل كل لغة في ذاتها) أو من خلال الترجمة (traduction أي interlinguistique = بين اللغات بعضها ببعض) تصطدم بهذا الحد المزدوج، جاعلة من مفهوم الدلالة الذي يحويها (la sous-tend) قاصرًا لمصلحة أي مفهوم آخر.

«فيزياء» للمعنى؟

دعم كواين مفهومًا علميًا (مقابل أسطوري) للدلالة وأوجب استناده إلى ما يمكن مراقبته مثل السلوكات والمنبهات الحسية، ولم يبق من بديل آخر إلا شرح الدلالة بعبارات «المنبه» (stimuli) و«رد الفعل» (reaction)، في ذهنية سلوكية (béhavioriste) محضة. فبدلًا من الكلام عن مُعادل بين العبارات، نتحدث عن «تماثل سلوكي»، والذي حين يظهر يجيز عد العبارات التي يسببها بأن لها نفس «الدلالة-المنبه». فيمكن لنا أن نقول أنّ عبارتين هما «منبه-مترادف» في الحالة التي تكونان فيها تحثان المتكلم على السلوكات نفسها، وعبارة تترجم بأخرى عندما تحث المتكلم في اللغة القصد (Langue- but) على سلوكات مماثلة لتلك التي تحث عليها العبارة الأصلية عند المتكلمين في اللغة المصدر (Langue- source).

ب. استبعاد «التفسير المفهومي» (intensions)

سيطاول الهجوم الكوايني ضد الدلالة حقلي المنطق وفلسفة المنطق، في صيغة استبعاد لـ«التفسير المفهومي»، وهي وجوه أخرى لأساطيرنا المعهودة.

المفهوم والما-صدق

ورث المنطق المعدل من أعمال فريجه ورسل بعض الاقتناعات القوية، ومنها خصوصًا أن حفظ اللغة من الإبهام بشكل أفضل يكون بالاكتفاء ببعض المبادئ التي نطلق عليها أساسية: «قابلية التحقيق» (Vérifonctionnalité)، الاستبدالية (substituvité)، الاستغراقية



(extensionnalité التفسير الما-صدقي). وفقًا للمبدأ الأول، قيمة الصدق في القضية المؤلفة هي دالة (une fonction) لقيمة الصدق في القضايا الأولية التي تشكلها؛ ووفقًا للمبدأ الثاني، بمقدوري في قضية مركبة استبدال قضية أولية (البسيطة) بأخرى لها قيمة الصدق نفسه، من دون تحريف قيمة صدق القضية الأصلية. ووفقًا للثالث، فإنّ محمولَين يشتركان في الما-صدقات نفسها (coextensifs) (الصدق في نفس الأشياء)، على سبيل المثل: «الحائزون على اللقَب»، و«آخر المنتصرين في المسابقة» يمكن استبدال أحدهما بالآخر في تعبير من دون تحريف قيمة الصدق.

إن لغة تحترم هذه المبادئ، نقول عنها «استغراقية» (شاملة) («ما-صدقية») (extensionnel).

فشل «الاستغراقية» (الما-صدقية)

والحال، توجد ملفوظات وخصوصًا في اللغة المستخدمة تستعصي على هذه المبادئ. لنأخذ «جان يعتقد أن شيشرون وشى بكاتيلينا»، تحويلها إلى «جان يعتقد أن تيليوس وشى بكاتيلينا» تحرف قيمة الصدق فيها، إذ يكفي أن يجهل جان أن «شيشرون هو تيليوس». ومع ذلك، فإن القضايا «شيشرون وشى بكاتيلينا»، و«تيليوس وشى بكاتيلينا»، والتي تتضمن عبارات مشتركة في الدلالة (codésignatifs)، صادقتان.

المبدأ الثاني هنا قد انتهك. وأكثر من ذلك، فإنّ قضية مثل «جان يعتقد أن ب» يمكن أن تكون صادقة، حتى ولو كانت القضية «ب» كاذبة: إذ بوسع جان الاعتقاد أن السماء تمطر، في حين أنها لا

تمطر. هذه المرة يبدو المبدأ الأول منتهكًا.

معالجة كواين

مثل هذه التعابير غير السوية نسبة إلى المبادئ الموضوعة، تنتسب إذًا إلى «اصطلاح مفهومي» (Idiome intensionnel)، يرفضه كواين بشدة بسبب الإبهام الإسنادي (opacité référentielle) الذي يدخله إلى الخطاب.

والبحث عن مصدر الإبهام هو في اتفاقية وعرضية بعض العبارات في القضية الواحدة؛ على سبيل المثال: «العوامل الجهوية» (opérateurs modaux) (ممكن/ضروري)، أو أيضًا الأفعل المعبّر عن «مواقف القضايا» (attitudes propositionnelles) (اعتقد، عرف، رغب، شك... وما سواها)، والتي تَخلق «سياقات مبهمة»، خاصيتها تعديل الاشتغال الإسنادي العادي للتعبيرات ذات الدلالة الوضعية (أو التقريرية) (expressions dénotantes) الموجودة. في حين أنها عادة تؤشّر إلى موضوع، وفي سياق مبهم تكف ببساطة عن فعل ذلك. ولكن إذا جعل الإسناد (الإحالة) من نفسه متقلب الأطوار، فإن ضمان الصدق الذي يصنع قوة اللغة المنطقية التي جرى إصلاحها يتبخر. في مواجهة هكذا إثبات حال، سيكون مسار كواين جذريًا (بطبيعة الحال): استخدام كل شيء لاستبعاد السياقات المبُهمة، ومن هنا تغدو الاستجابة لمتطلبات منطق الما-صدق (الاستغراقي) (la logique extensionnelle) المصاغ في مدونة مقننة (رمزية = أو مصطلح عليها) (notation canonique) حجر الزاوية لكل خطاب ذو ادعاءات علمية.



2. منطق، أبستيمولوجيا، أنطولوجيا

يمكن أن نأخذ على كواين صرامته الشديدة في شأن معيار العلمية الذي صاغه، فهو من جهة يحرمنا من إمكانات تعبيرية تحليلية من المنطق الجهوي (logiques modales)، والأبستيمي، والوجوبي (déontique)[1]، والتي يرى فيها «انحرافات». ويقودنا من جهة أخرى إلى اعتبار أن ميادين علم الأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع لا تملك موضوعات خاصة بها، ولا تقدر على إدراك، في لغة مجازية تمليها مصالحها الخاصة، سوى واقع فيزيائي (physique) في نهاية الأمر.

ولكن كواين يعي تمامًا هذه التقييدات ويتحمل مسؤوليتها. إذ إن المنطق في رأيه ليس معيارًا إصلاحيًا رمزيًا فحسب (norme notationnelle)، بل إنه أيضًا معيار للفكر الذي في سعيه للمعرفة العلمية، عليه أن يضمن صلاح تسلسل مفاهيمه بقدر ضمان خياراته الأنطولوجية.

أ. لا موجود (كائن) من دون هوية (pas d'entité sans identité)

الشرح بين الاختزال والاستبعاد

لا يجهل كواين بالطبع مختلف المحاولات التي هدفت إلى إعادة اشتغال الإسناد (أو المرجع) في السياقات المبهمة وقد حاول فريجه نفسه إيضاح حالات السياقات التي تحوي اقتباسًا، مقترحًا أنّه في سياق الاقتباس يمكن عد التعبير مفتقدًا لإسناده العادي ويحيل إلى «معناه» (son «sens») فحسب. ولكن هنا، في نظر كواين يتم في التحليل، إدخال شبه موجودات (pseudos-entités)

غير خاضعة للضبط: فأي معايير هوية نحوزها في الواقع من أجل «المعنى»؟ من الأفضل عندها العدول عن هكذا ترتيبات واستبعاد الملفوظات المولدة للإبهام الإسنادي، الشيء الممكن في نظر كواين من خلال الشرح المسهب (paraphrase) في لغة (أصبحت اصطلاحية رمزية) المنطق الاستغراقي (الما-صدقي = La logique extensionnelle) الموحد.

ب. «الترتيب الطبقي» ورهاناته

أطلق على استراتيجية كواين هذه لفظ «الترتيب الطبقي»[2] (embrigadement) وهي وسيلة «كبح» اللغة العادية والمنطق «المنحرف» (déviantes) الذي يتخيله المُنظِّرون كي يدركوه. في حين أن مكان بروزه هو التحليل المنطقي للّغة، ورهاناته واستدلالاته تتخطى هذا الإطار البسيط، فهو يُشرك معه المنطق والأبستيمولوجيا والأنطولوجيا.

البُعد المنطقي

من الواضح، أن قرار أخذ اشتغال اللغة في الحسبان من خلال فرض النقل عليها إلى لغة اصطلاحية رمزية، يهدف بشكل أساسي إلى توضيح السلوك الإسنادي للّغة. وأحدى مزايا كواين إظهاره أن استخدام التسوير (Quantificateur)[3] في السياقات المبهمة يخلق صعوبة وأن عليه ان يخضع لضبط صارم ونحن نعرف الأهمية التي يسبغها كواين عليه في وصفه حاملًا (porteurs)، بوساطة المتغيرات التي يربطها، «حمولة أنطولوجية» للخطاب.



البُعد الأبستيمولوجي

من وجهة النظر الأبستيمولوجية يملك «الاصطلاح الرمزي» (la notation canonique) أثرين رئيسيين:

- **تبسيط النظرية** التي تنتج من استبعاد كل العبارات التي يُظهر الشرح المسهب المُناسب طابعها النافل. لنستمع إلى كواين: «إن هَمَ تبسيط النظرية هو أحد الدوافع الأساسية للجوء المُعمم إلى تقنية (artifice) الاصطلاح الرمزي (notation) في المنطق المعاصر. فمن الجنون إثقال نظرة منطقية بزخارف (محسنات) لغوية يمكن تشذيبها»[4].

- **توضيح ترسيمتنا التصورية:** لأن إلزامية المرور بغربال «الاصطلاح الرمزي» المشهود له وحده بالشفافية من وجهة نظر الإسناد (أو المرجع) (La référence) والصدق (La vérité)، حدت من عدد عمليات الافتراضات النظرية (المأخوذات)[5] (assomptions Théoriques) التي نرتكبها بسبب لغتنا التي نعبر بها: «فكل اختزال نقوم به في البناءات المتنوعة المكوّنة والضرورية لإنشاء ملفوظات العلوم هو تبسيط في بُنية الترسيمة التصورية الإجمالية لهذه الأخيرة. فكل استبعاد للبناء ننجح فيه، بتفسيرنا المسهب له في عناصر أكثر وضوحًا، يُساهم في توضيح الترسيمة التصورية للعلم»[6].

على هذا النحو، فإن استبعاد عامل الموقف بإزاء القضايا، عدا عن كونه يعفينا من الفرضية المكلفة لـ «الحالات الذهنية» (états mentaux)، فإنه يكافح لمصلحة الفكرة التي تقول إن ترسيمة تصورية وحيدة تسمح بأن ندرك قدرًا من الظواهر الفيزيائية والظواهر النفسية. يوجد وسيلة واحدة للعمل بالعلم رغم تنوع موضوعات



هذا الأخير: إذ إن ثنائية «علوم الطبيعة» و«علوم العقل» ليست غير نزاع كلمات.

البُعد الأنطولوجي

وفي ما يتعدى المنطق والنظرية العلمية التي يعمل لخدمتها، فإن الأنطولوجيا هي المقصودة في المقام الأخير، فالمنطق السليم وحده يمكن أن يُرشدنا في التزاماتنا الأنطولوجية ويقينا من ذيوع الموجودات (entités) غير المتحكم فيها، والتي تجعلنا اللغة العادية نذعن لها كثيرًا والتي تحويها في داخلها بعض الخطابات ذات الادعاء العلمي لأنها تتغاضى عن الاستعانة بالاصطلاح الرمزي. «إن البحث عن الإصطلاح الرمزي الكوني الذي يملك البنية الأبسط والأوضح الممكنين لا يجب تمييزه عن البحث عن المقولات النهائية أو عن جهد إنتاج القسمات الأكثر عمومية للواقع»[7].





خلاصة

دفع الطموح الإصلاحي كواين نحو موقف الحد الأدنى (un minimalisme) الأبستيمولوجي والأنطولوجي، مهما كان القطاع الذي يُمارس فيه تحليله. ومن هنا تعلقه بالسلوكية في شأن نظرية اللغة، والاستغراقية الما-صدقية (L'extensionnalisme) في خصوص النظرية المنطقية، والفيزيائية (physicalisme) في ما يتعلق بالعلم.

وللوهلة الأولى تبدو فلسفته بأكملها وكأنها محاولة ممنهجة لشرح الأعلى بالأدنى، بإمرة سلطة اللغة، ويقترب مجال إدراكها من نطاق المقولات (catégoriale) وهي أبعد من أن تهتم بالطريقة فحسب.

قلة من المنظرين المعاصرين أو اللاحقين، باستثناء د. دافيدسون (D. Davidson)، وبتنام (H. Putnam)، ون. غودمان (N. Goodman)، توصلوا إلى التكيف مع هكذا مناخ بات نادرًا على هذا الشكل.



هوامش

(1) اللفظة اليونانية deon, ontos أي ما يجب فعله. والمنطق الوجوبي هو الدراسة المنظمة للخصائص الصورية (الشكلية) التي يجري التحقق منها بواسطة المدونات الحقوقية مثل تلك العائدة للقانون والموجبات. المترجم.

(2) embrigadement، تصنيف التعبيرات في طبقات بهدف التخلص من المتناقضات وأيضًا من نظرية الأنماط، إلا أن هذه النظرية وكما ينقُل محمد مهران رشوان «بدأت من نسق رسل، على وجه نستطيع معه القول بأنه على الرغم من محاولة كواين وضع نسق لا تظهر فيه مباشرة نظرية الأنماط، إلا أن نظريته عن «الترتيب الطبقي» قد جاءت في تعبيراتها متطابقة مع تعبيرات نظرية الأنماط عند رسل».

انظر: محمد مهران رشوان، «المنطق في القرن العشرين»، ضمن كتاب **حصاد القرن**، بإشراف فهمي جدعان (مؤسسة عبد الحميد شومان والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007) ، الصفحة 576. المترجم.

(3) Quantificateur, Quantification: مسرد دقيق للقضايا الموضوعة في صيغتها بحيث تكفل الأداة بين الموضوع والمحمول تحويلها طردًا من كميات غير متناظرة إلى كميات متناظرة. المترجم.

(4) راجع مقالته: «الكلمة والشيء»:

«Le Mot et la chose», trad. Fr. Paul Gochet, Paris, Flammarion. 1977, p. 229.

(5) Assomptions من الكلمة اللاتينية assumptio، تحمل مسؤولية، أخذ على عاتقه، وهي عملية تقوم على تأكيد شيء ما في سبيل إمكان البرهنة على قضية ما. المترجم.

(6) راجع: Ibid, p. 232.

(7) Ibid.



الفصل السادس

مقاومة وانشقاق



1. من زهو الانتصار إلى التبصر

مع عمل كواين، وصل الطموح الإصلاحي المحرك لمؤسسي فلسفة اللغة إلى ذروته. فقد حملت مقولة «الترتيب الطبقي» (embrigadement) التي قال بها هذا الأخير مشروع إصلاح اللغة المستلهم من البحوث المنطقية-الرياضية إلى تعبيره الأكثر جذرية واكتمالًا. ولكن، وفي الوقت نفسه ولأنه دفع الادعاء الإصلاحي إلى مداه، فقد كشف كواين عن الأخطار والحدود، مُحضِرًا على هذا النحو تجاوزه داخل فلسفة اللغة نفسها.

أ. في بعض شطط الجذرية

جذرية أم اختزالية؟

لقد شددنا على جذرية مواقف كواين. وإذ نجح في تبرير نفسه على مستوى المنهج، فإن المستوى الأبستيمولوجي يُظهر بعض العوائق ومحتمل أيضًا على المستوى الأنطولوجي. فإذا نظرنا من قرب، فإنه يأخذ عند كواين مظهر اختزالية (réductionnisme) أخذها بالتأكيد على عاتقه، ولكنها تطرح مشكلة. فقد رأينا، بالفعل، أن «الأركان»

الثلاثة للنظام عنده (السلوكية والفيزيائية والاستغراقية) تشترك في الاهتمام المستمر بالاقتصاد الأنطولوجي. على هذا النحو، تجعل السلوكية والفيزيائية نافلًا المفاهيم الذهنية للدلالة وللعقل، في حين تخلصنا الاستغراقية من هذه «الموجودات المفهومية» (entités intensionnelles) المثيرة للشبهات والتي هي عند كواين «القضايا» أو «المعاني». فحين يؤدي شرحان الخدمات نفسها، يقول، من الأنسب تفضيل الأكثر اقتصادًا في الفرضيات الأنطولوجية. وعليه أيضًا أن يؤدي تمامًا الخدمات نفسها، والحال ليس كذلك دائمًا.

هكذا، على سبيل المثل، يضع منع استعمال الأسوار في السياق الموجه (en contexte modal) بعيدًا من التحليل بعض الملفوظات المستخدمة نظير «بيار يعرف أن بول قادم»، حيث يتطلب الوصف الرمزي التوليف بين عامل موجه (opérateur Modal) إبستيمي (يعرف) وسور (Quantificateur) وجودي. والحال، لقاء افتراضات نظرية (assomptions) أكثر ليبرالية من ذلك الخاص بكواين، فإن «علم دلالة العوالم الممكنة» (La sémantique des mondes possibles) العائد لكل من هينتيكا (Hintikka) وكريبكه (Kripke) يضع في اعتباره الاشتغال الإسنادي لهكذا تعبيرات (Fonctionnement référentiel).

صعوبات أخرى

أما في شأن الملفوظات «القصدية» التي تتدخل فيها «الحالات الذهنية» (اعتقاد، قصد، رغبة...)، فإن كواين يميل إلى اختزال فيزيائي تجعله مؤيدًا القول إنه على المستوى الأنطولوجي لا يوجد سوى حالات عصبية (états neuronaux) تتقبل وصفان: واحد في



اللغة الفيزيائية لعلوم الطبيعة، والآخر، في اللغة الذهنية لعلم النفس العادي ونوع من فلسفة الذهن. وإذا مالت الكفة لمصلحة الثاني لحاجات الاتصال الجاري، فإن الأول وحده يحتفظ بحق إدعاء المرتبة العلمية.

وأخيرًا، تجعل معالجة الدلالة بتعبيرات السلوك عسيرًا إدراك المعنى المعياري للملفوظات التي تؤسس سلوكاتنا الأتيقية، لأنها لا تتوصل إلى إعادة التمييز الأساسي، من وجهة نظر الأتيقا، بين الفعل المنجز بالواجب والفعل المتوافق ببساطة مع الواجب. إلا باختزال (ما فعله كواين) السلوك الأخلاقي في شكل مرهف من التصرف التقني-الاستراتيجي، ما يشبه كثيرًا ما سماه ريله (Ryle) «خطأ في المقولات» (category mistake = erreur catégoriale).

جردة

في الإجمال، إن نذر الفقر (أي التقليل من الموجودات) الذي قال به الفيلسوف المهموم بالاحتراس من التيه الميتافيزيقي ومن تضخم الموجودات (entités) النافلة، يمكن أن يكون له أثران مشؤومان وغير متوقعين، الأول، الحرمان الطوعي من أدوات تحليلية قوية، إذا ما حكمنا على ذلك من خلال التقدم المذهل والنجاح المشهود له الذي يعرفه اليوم المنطق الموسوم من كواين بـ«الزائغ» (أو المنحرف). وتاليًا، الاكتشاف بأن المراقبة والاقتصاد في ما خص الالتزام الأنطولوجي يمكن أن يؤدي، وبعيدًا من التبسيطات المرجوة، إلى «انحلال الموضوع» (dissolution de l'objet) وخصوصًا في مجالات فلسفة الذهن، والأتيقا والعلوم الاجتماعية.

ب. مفهوم جزئيّ للّغة

تركزت أولى بوادر النقد على جذرية المواقف، وأخرى أسمعت نقدها هذه المرة في خصوص المعالجة المفروضة على اللغة.

وظائف اللغة «المنسيّة»

بالتأكيد، في هذه النقطة يعد كواين وريثًا ومتابعًا لتوجه كان رائده فريجه. فمن مشروع الكتابة الإيحائية (أو الكتابة التصويرية) (Idéographique) الخاص بفريجه إلى اللغة الاصطلاحية المقترحة من كواين، نجد هيمنة للتوجه نفسه: لا يمكن تجنب أفخاخ اللغة إلا بفرض نظام (discipline) مستوحى من اللغات الصورية (formelle) في غفلة عن بعض الأمور!

- إن اللغات الصورية، أولًا، لغات اصطناعية (artifcielles)، جرى تصورها لبلوغ هدف محدد: إعطاء شكل مناسب لما يعبر عن المعرفة العلمية، غير أن اللغات الطبيعية لا تملك بوضوح هذا الهدف وحده.

- وأكثر من ذلك، اللغات الصورية إذا جاز القول هي لغات «نحوية» (syntaxiques) (تركيب جمل وعبارات)، إمكاناتها التعبيرية مقيدة بقواعد تشكل وتحول المنظومات التي تولدها، ما يقربها من «الحساب» (calcul)، بيد أن اللغات الطبيعية لا تترك نفسها تنقاد إلى هكذا صيغة من الاشتغال.

كل هذه المحاولات، أخيرًا، تتعلق باللغة مقادة إلى واحدة من وظائفها، أي الوظيفة «التمثيلية» (representative) والتي تملك من خلالها القدرة على قول ما هو موجود بصدق (dire ce qui est avec



vérité) ومن دون شك، فإن هذه الشروط جرى وصفها وتشفيرها (سنها) في قواعد تشكل واشتغال اللغات الصورية، ونحن نعلم أي متطلبات على اللغة أن تستجيبها كي تضمن شفافيتها وإسناديتها (أو مرجعيتها) وصدقها. ولكن ثمة وظيفتان قد نحيتا جانبًا: الوظيفة التعبيرية (expressive) ووظيفة النداء (appel).

من النحو إلى الاستخدام

والحال، إذا ظهرت غير جوهرية من وجهة نظر المعرفة، فإنها أساسية من وجهة نظر التواصل (communication) ويمكن حتى إهمالها طالما لا نهتم إلا بتقديم وصف ملائم للعالم، ولكن نعود إليها إذا ادعينا فهم النشاط اللغوي لنفسه وبوصفه كذلك. وهو ما سيصبح ابتداء من خمسينات القرن العشرين المنصرم الموضوع الأثير عند فلاسفة اللغة، كردة فعل، جزئيًا، ضد «الاختزال» في العصر السابق.

إرشادات

أقر نقد اللغة الذي أُنشئ من فريجه إلى كواين بحدوده في نفس الوقت الذي أقر فيه مسلماته: فالتشفير (التسنين) (codification) الصارم والخصب للاشتغال الإسنادي للّغة كان من متلازماته الضرورية تقييد اللغة في واحدة من وظائفها، المأخوذة أقله على أنها أصلية (originaire)، ما لا يتنافر مع مفهوم كواين عن التعلم المؤسس على عرض الرسوم (التعليم الإشاري = ostention)، إذا لم نقل أولية (principielle).

حددنا من دون شك بهكذا إصلاح، ما هي اللغة الضامنة لعملياتها الخاصة، والقادرة على أداء وصف علمي للعالم لكن، يبقى علينا أيضًا فهم ما هي اللغة، في شمولية أبعادها المتواشجة أخيرًا.

ماذا يعني التكلم؟

يفترض هذا الفهم احترام اللغة في تعددية استخداماتها. إذ يبدو جليًا أن الإمكانات التعبيرية للّغة تذهب أبعد مما يسمح باستشفافه الجدول الوصفي وحده. التكلم (parler) لا يعني تسمية الأشياء فحسب، إنه أيضًا طرح الأسئلة، وإعطاء الأوامر، وتقديم الوعود، وصوغ الأمنيات، ووضع البيانات... وما إلى ذلك. قدر من الاستخدامات حيث يقف التنوع واللا-تجانس متحديًا، وإذا لم يكن التحليل فأقله التشفير، وحيث يسمح الفهم وحده بالإجابة عن خصوصية التواصل اللغوي. إنها مهمة جديدة ترتسم إذًا أمام فلسفة اللغة، وهي وصف وتحليل التواصل اللغوي بين البشر، في مجمل أبعاده. وفي نهاية طرف هذا البرنامج الجديد نجد شخصية فتجنشتين المثيرة للجدل.

2. الفلسفة الثانية لفتجنشتين: من الرسالة إلى التحقيقات

نحن نعلم إنه بعد نشر **الرسالة المنطقية الفلسفية** (1921)، أهمل فتجنشتين ممارسة الفلسفة ليكرس نفسه لأنشطة أخرى. وحين عاد بعد عدة سنوات من الصمت إلى الفلسفة فذلك كي يُباشر



نقدًا منظمًا، لا لعمله السابق بل لذلك الشطط في داخل الحركة التي تصورها وكتب عنها. هذا القطع شجع المعلقين على الحديث عن فتجنشتين «الأول» و«الثاني»، ما يُعزز فكرة تغير الاتجاه التام للكاتب. ويمكن أن يكون في ذلك مبالغة، لأنه من **الرسالة** إلى **التحقيقات الفلسفية** (1939 - 1936) ثمة قطع وقدر من الاستمرارية أيضًا[1].

أ. قطع

في المقام الأول بالنبرة والأسلوب قطعت **التحقيقات** مع **الرسالة**. ومكان الأسلوب الحكمي (Aphorismes) المقتضب في المقالة تحل الملاحظات التي تعبر عن حركية الفكر وهو في ترقيه: في موارباته وتكراراته وتردده ومظهره المتجزأ. وكذلك، مكان التصنيف الصارم لأطروحات **الرسالة** يحل تسلسل حر للأفكار، فنفس الموضوعة يمكن أن تستعاد بإيضاح جديد في أمكنة مختلفة من النص، وحيث لا يتعنّى فتجنشتين بتنظيمها بنفسه في «كتاب» فعلي.

إذا راعينا الآن الأطروحات المدافع عنها، يتبين لنا أن المنطق نفسه هو موضع الاعتراض في ادعائه أنه مُدرِكٌ لاشتغال اللغة. فهو كما تطور واستُخدِم منذ فريجه يشكل إطارًا ضيقًا وصارمًا في آن، كي يَصب فيه كل غنى اللغة.

والحال، نشأت هذه الهنَة من التفاوت في مفهوم اللغة نفسه، المتداول آنذاك، والذي باشر فتجنشتين نقضه. ويغطي هذا المفهوم ثلاثة أخطاء:

- أن اللغة في طبيعتها وصفية؛

- أنها تشتغل مثل مدونة مصطلحات،

- وأن الدلالة مثابة «بطاقة» واسِم (Etiquette) تضعها الكلمة على الشيء.

ثلاثة أخطاء أثارها فتجنشتين في كتبه، قبل أن يستخلص كل النتائج في مفهومه الجديد للغة الناجم عنها.

ب. استمرارية

يبقى أن بعض عوامل الاستمرارية بين العملَين يمكن التقاطها، وأظهرها يتعلق بمفهوم الفلسفة. هنا، في الواقع، يثابر فتجنشتين على القول إنّ الفلسفة لا تصنع نظريات، وأن رسالتها وصفية أساسًا، ومنذورة لتوضيح اشتغال اللغة. وهذا التوضيح لا يمر بعد الآن بغربال المنطق الدقيق، ولكن يمر عبر إحصاء دقيق وكامل قدر الإمكان لاستخدامات اللغة.

ج. جردة

تدخل فلسفة اللغة هنا في مرحلة جديدة من تاريخها. فبعد زمن الإصلاحات الذي شهد انتصار التحليل المنطقي الذي ساهم في توضيح البعد النحوي (التركيبي) والدلالي للّغة، انتقل الاهتمام نحو الاشتغال الفعلي للّغة في استخدامها اليومي. وأضحى فجأة وشيئًا فشيئًا المحور الدلالي-البراغماتي (الذرائعي = التداولي) هو محور الاهتمام الرئيسي للمُنظرِّين. من دون شك، إن الإلتفات إلى الاستخدام (L'usage) يؤشر إلى نوع من انكفاء التحليل المنطقي لمصلحة الوصف المحض، بيد أن هذا الانكفاء سيكون قصير الأمد.



ولن يتأخر المناطقة في جعل علم الدلالة والتداولية في اللغات الطبيعية موضوعها المفضل، مع نتائج عظيمة أحيانًا، تكون بمثابة شهادة أن الوظائف»المنسيِّة» مثل الوظيفة التعبيرية ووظيفة النداء (appel)، يمكنها هي أيضًا أن تقبل تأثير التحليل المنطقي.



(1) يقول فتجنشـتين في **الرسـالة**: «إن موضوع الفلسـفة هو التوضيح المنطقي للأفكار. فالفلسـفة ليسـت نظرية من النظريات، بل هي فاعلية. ولذا، يتكون العمل الفلسـفي أساسًـا من توضيحات. ولا تكـون نتيجة الفلسـفة عددًا من القضايا الفلسـفية، وإنما هي توضيحات للقضايا. فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة. وإلا ظلت الأفكار معتمة ومبهمة، اذا جاز لنا هذا الوصف».

فغاية التحليل في **الرسـالة** هو تحليل اللغة، إذ إن سـوء فهمها سبب كثير من المشكلات الفلسفية. لذا، يبدأ فتجنشتين **رسالته** بتحليل العالم «منطقيًا»، أما في **التحقيقات** فإنه يلجأ إلى التحليل الفلسفي، فلا يدرس العبارات والكلمات من حيـث صورتها بل بوصفهـا كلمات أو عبـارات لها اسـتخدامات فعلية في الحياة، أي إنه يدرسها من حيث مادتها.

انظر، رشـيد الحاج صالح، **المنطق واللغة والمعنى في فلسـفة فتجنشـتين** (دمشق: دار كيوان، 2005)، الصفحات 63، 67، 138. المترجم.



الفصل السابع

عودة اللغة العادية

أظهر النقد أو الابتعاد فحسب عن «شطط» التقليد الإصلاحي حساسية نمت بين الباحثين، ناقلة اهتمامهم نحو موضوعات وطرائق تحقيق جديدة. والأمر كان أكثر من مجرد انزياح، إنه تحول فعلي، كان يعتمل شيئًا فشيئًا بمداه وآثاره، ويقترب من تغير فعلي للباراديغم (paradigm)[1] في فلسفة اللغة، ففي الواقع، خلف شيئًا فشيئًا باراديغم «قابلية التحقيق» (vérifonctionnel) الذي هيمن على التيار الإصلاحي من فريجه إلى كواين، الباراديغم الاتصالي (Le paradigme communicationnel)، والذي سيفرض نفسه خصوصًا لدى من يطلق عليهم «فلاسفة اللغة العادية». وفي داخل هذا التحول كان دور فتجنشتين حاسمًا مرة أخرى.

1. أثر كتاب التحقيقات الفلسفية

في هذا المؤلف الثاني الأساسي، عاد فتجنشتين عن مواقفه السابقة. كان الأمر أكثر من مجرد نقد ذاتي، إنه إعادة نظر في تيار فلسفي من جانب أحد قدامى المدافعين عنه، والذي إعتنق الآن آراء أخرى.

أ. مظاهر التقلب

ثمة مظاهر عدة لتبدل فتجنشتين، ويحصي عليه ناقدوه كثيرًا من النقاط.

مفهوم اللغة

ما أعترض عليه، في المقام الأول، هو الحدود الشديدة التي فرضها أنصار التيار الإصلاحي على اللغة، في معارضتهم «الميتافيزيقا» وإرادتهم بناء «لغة مثالية». ومن هذه المحاولة ذاتها يميز فتجنشتين نفسه، فهو لم يعد يعتبر أن «خلاص» الفلسفة يمكن أن يتأتى من إنشاء هكذا لغة. زد على ذلك أن اللغة قد اختزلت في وظيفتها التعبيرية وحدها، وأفتُرِض أن مسألة الدلالة قد حُلت بوساطة القواعد الصورية (les règles formelles) للّغة المثالية، فدلالة تعبير ما تحصل حين يلبي قواعد التأليف الجيدة. وتلك التي تسمح بأن ننسب إليها «موجودات» (entités) من نمط محدد حين نفسرها في نموذج. فالدلالة، كما قيمة الصدق، مسألة حساب (calcul)، ما يحفظ بالتأكيد شرط أحادية المعنى (univocité) الذي يُعد أساسيًا، ولكن من دون أن يظهر وكأنه مفهوم ضيِّق للدلالة.

محاولة «المكوّن النهائي» (L'ultime)

لكن، هناك أكثر من ذلك، فخلف مشروع إنشاء «لغة مثالية» قام فتجنشتين بالتنديد بالفكرة التي تقول إن الدلالة، من جهة، والواقع، من جهة أخرى، يمكن أن يكونا موضوع تحليل «نهائي».

فمن رسل إلى كواين، نجد هذا الاقتناع بأن «تفصيل» (La mise au jour) المكونات النهائية للقضية، تقطيعها في «الشكل



المنطقي» للقضية، يؤدي وظيفة إيصالنا إلى المكونات النهائية وإلى بنية «الواقع». غير أن فتجنشتين، ومن فكرة التحليل «النهائي» نفسها كشف عن «وهم ميتافيزيقي».

فالنهائي ليس إلا ما يُطلق عليه أنه كذلك لحاجات نوع من التحليل، أي نسبيًا وفقًا لبعض المصالح والأهداف والرهانات. فالوصول إلى الحد المنطقي الأخير الذي لا يمكن تبسيطه بعد (أو اختزاله) (L'irréductibilite logique)، ضامن «النهائي» في المقاربات ذات الصلة، ليس إلا وسيلة من بين وسائل أخرى ممكنة لتحديد العنصر النهائي. فعدم معرفته أو إخفائه يعني الوقوع مجددًا في «الوهم الميتافيزيقي» الذي ندعي تخطيه.

التسليم للغة بتنوع استخداماتها

كان من أثر مختلف أنواع النقد تعديل طريقة إدراك اللغة وطريقة طرح سؤال الدلالة. فسيعقب التحليل المنطقي الذي يقوم على «الشكل المنطقي» و«المكونات النهائية» للقضية إحصاءً (أو تعداد) (recension) لمختلف الاستخدامات الفعلية للقضية ووصفًا لشروط الاستخدام والتي ضمنها وحدها يتحدد المعنى. وبعيدًا من متابعة النظر إليها بوصفها مصدرًا، بل المصدر الرئيسي، للإبهام، فإن تعدد الاستخدام الذي يُحترم بشدة، يصبح الآن هو ما يقينا من مفهوم اختزالي للغة والدلالة.

ب. «الدلالة، هي الاستخدام»

إحدى الأطروحات الرئيسية في **التحقيقات** هي ومن دون منازع، تلك التي تؤكد أن «دلالة كلمة ما، استخدامها في اللغة». غير أن ما

يميز الكلمة أن لها في اللغة استخدامات متعددة. فبدلًا من رسم صفات شكلية للدلالة بحدود القواعد النحوية (التركيبية)، يقودنا الإحصاء ووصف الشروط الفعلية للاستخدام إلى تحديد الدلالة.

ألعاب اللغة...

فهم عبارة يعني فهم ما تدل عليه في استخداماتها الفعلية، أي فهم كيف «تنتظم» (opère) في مواردها المختلفة. لا يمكننا فصل الدلالة عن الشروط الفعلية للاستخدام: هكذا، فعبارة «ألقى التحية» (Saluer) لا تأخذ المعنى نفسه إذا أستخدمت من قبل جنرال يُخطِرُ مجندًا بتحيته، ومن طرف شخص يُحَيِّي صديقه القديم أو من المؤمن الذي يقول «عليك السلام يا مريم» فكل مورد موجود في موقف يستدعي ممارسة (pratique) مخصوصة، تعطي لكل حالة لفعل «إلقاء التحية» (Saluer) تلوينة فريدة يجب التمكن منها لفهم العبارة في كل مواردها.

ومن أجل إدراك هذا الاقتران بين الدلالة اللغوية (signification linguistique) ومجمل السلوكات والممارسات، لجأ فتجنشتين إلى مقولة «لعبة اللغة» (Jeu de langage)[2]. طلب تحية رسمية، الترحيب الأليف بصديق، إقامة الصلاة، قدر من «ألعاب اللغة» ينتظم في داخلها فعل «إلقاء التحية». ففهمه، يعني القدرة على وضعه في غير مكان، ما يفترض أن في إمكاني المشاركة احتمالًا في هكذا ألعاب للّغة. وفي ما خص دلالة العبارة، وبعيدًا من القدرة على التعريف بحدود شكلية محضة، فإنها محصورة في إحصاء ووصف الألعاب المختلفة التي يمكن العبارة أن تورد فيها.



... إلى «القواعد»

كيف يمكن للمعنى أن يتوضح في هكذا إحصاء؟

فمختلف استخدامات العبارة والألعاب المختلفة التي تسمح بها، تقيم نوعًا من الصلة وتنظم نفسها في «شبكة» (Réseau)، يشكل وصفها قواعد العبارة. لا يتعلق الأمر هنا بالتأكيد بقواعد اللغة بالمعنى المتعارف عليه، أي هذا الفرع المعرفي المعياري الذي يحدد شروط البناء والاستخدام «الصحيح» للعبارات اللغوية. يتعلق الأمر بقواعد لغوية فلسفية (grammaire philosophique)، وصفية بشكل أساسي، ذات وظيفة مزدوجة: لغوية (linguistique)، لأن الموصوف هنا، هي القواعد الفعلية لاستخدام تعبير (ما)، وأنطولوجية (ontologique)، لأنه ومن خلال الوصف تتخطط وفي آن الميزات الأساسية لـ «الأشياء» (أو الموضوعات) التي تعبر عنها الملفوظات. على هذا النحو، يقول فتجنشتين: «كل عصا تملك طولا» يدل تقريبًا «نطلق على شيء ما (أو ذاك) طول العصا - ولكن لا نطلق على شيء طول المكوّر (Boule)»[1].

دلالة «قواعد اللغة» (La grammaire)

على هذا النحو نرى أن وظيفة «الرسالة المنطقية» التي آلت إلى تحصيل الحاصل (Tautologies)، أي تعيين حدود ما يمكن وصفه والتفكير فيه، آلت الآن إلى قضايا قواعد اللغة (propositions grammaticales) تلك التي وصفتها الميتافيزيقا القديمة بأنها «أساسية». مع فارق غير بسيط: عندما تؤمن هذه الوظيفة من

جانب القضايا المنطقية، يمكن لتعيين الحدود أن يؤخذ على أنه نهائي ومطلق. الآن، إذ يعود أمره إلى قضايا قواعد اللغة، يصبح نسبيًا بالنسبة إلى اللغة التي صيغ بها والألعاب التي يسمح بها.

قضايا «قواعد اللغة» تُثبِت إذًا، في لغة محددة، وفي آن دلالات التعابير ومظهر العالم التي تسمح هذه اللغة ببنائه أو وصفه. إن خط القسمة بين المعنى واللا-معنى يبقى وثيقًا، ولكنه يُبدل مكانه، لأنه غير مرسوم للأبد، ولكن نسبة إلى لغة (ما) وإلى ألعاب محددة يسمح بها. وبدرجة أقل تبدو فكرة التماس الضرورية للمعنى واللا-معنى هي موضوع الاعتراض هنا بقدر ما هي فكرة «طغيان» المنطق ولغة العلم: فنحن لا ننتقد مطالباتهم ولا مقولاتهم، ولكن ادعاءهم الصلاحية «الكونية»، علمًا أن شرعيتهم محصورة في حقلهم الخاص وفي دوائر أنشطتهم المعنية.

2. نحو «براديغم» جديد في فلسفة اللغة

إن التحول الذي حصل انطلاقًا من «التحقيقات» وفي قسم كبير تحت تأثيرها، جَسَّد مُقدَّمًا ومن دون شك تغييرًا في براديغم فلسفة اللغة، علامته البارزة الحلول التدريجي بَدَلَ وجهة النظر النحوية (التركيبية) للبنية، لوجهة النظر الذرائعية (التداولية) للاستخدام.

أ. مفهوم جديد للغة

تعرض مفهوم اللغة السائد داخل التيار الإصلاحي لتغير عميق. إذ لم يعد يقتصر الأمر على عدم اعتبار أن البنية الشكلية (الصورية) للّغة تستنفد مسألة الدلالة، بل لم نعد نأخذ تعدد الاستخدام بوصفه



عائقًا أمام تحديد المعنى. بل الأولى أن نرى فيه مُكملًا لا غِنى عنه لمفهوم غير اختزالي للدلالة.

وهناك أكثر من ذلك، فخلف هذا التغيير ترتسم في الأفق عدة انزياحات.

- **أولًا**، الاعتراف بالبعد الفِعلاني (من فِعل actionnelle) للدلالة. فإذا كان فهم ملفوظ ما هو التحكم ببعض ألعاب اللغة، فإن التكلم (parler) هو وقبل كل شيء سلوك ما مرتبط بجملة من الممارسات المنظمة، «شكل من الحياة» (forme de vie)[4].

- **تاليًا**، إيضاح أهمية السياقات ومواقف استخدام اللغة في تحديد المعنى. في حين أن محاولات إنشاء «لغة مثالية» اهتمت دائمًا بنزع سياق الدلالة (dé-contextualiser)، بمحاولة إيجاد، ضمن الاقتصاد الداخلي للنظام، الشروط الكافية للدلالة. المقاربة الجديدة لا تدرك المعنى إلا في تعلقه بالسياق، باعتباره مُكوِنًا.

أخيرًا، هذا الاهتمام المستجد بالاستخدام سبق أن أظهر رسوخ بُنية الفعل التواصلي: فالكلام هو بالتأكيد نشاط منظم، ولكنه نشاط داخلي-فِعلي (تفاعلي) (interactionnelle) وكل من هذه السِمات التي التقطناها تشهد على هذا البعد، وتُفِيد أن المفهوم الجديد للّغة الذي أقيم شيئًا فشيئًا، يتأسس على حساسية جديدة في وجه ضوابط التواصل اللغوي.

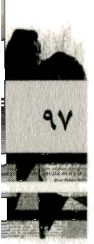
ب. مفهوم جديد للمنطق

كما فلسفة اللغة، وجد مفهوم المنطق نفسه متأثرًا. فحتى اللحظة كان المنطق أداة التحليل الأثيرة، متيحًا إما الاختزال أو تخطي أثار

الإبهام التي تخلقها تغيرية (variabilité) الدلالات - وخصوصًا السياقات النصيِّةَ (contextuelle) - لقاء، كما رأينا، عدد من التقييدات المفروضة على اللغة. والحال، في المقاربة الجديدة، تجد الأبعاد المستبعدة حتى الآن حقها في الذِكر. إضافة إلى الإصرار على التغيرية والتنوع في الاستخدام، نكتشف الطابع «المفتوح» غير المحدد لألعاب اللغة، الذي يظهر وكأنه يضع «خارج الحلبة» (أو التداول) (hors circuit) التحليل المنطقي ويحبط حتى فكرة تصنيفها أو ترتيبها في أنماط (typologie)، وعلى الأكثر بمقدورنا مُعاينة «تشابه أُسري» (ressemblances de famille) بينها[5]، من دون الذهاب أبعد من ذلك. وبهذا الاعتبار، لا يعد المنطق فاقدًا للأهلية (disqualifiée)، ولكن بات ينظر إلى صلاحياته على أنها محلية حصرًا.

ج. تبعات على الأنطولوجيا

أخيرًا، يُعدّل المفهوم الجديد للّغة والمنطق من علاقات اللغة والعالم. فكل لعبة لغة، بتحديدها «قواعد اللغة» (la grammaire) هي تجربة، تُباشر علاقة مخصوصة ومحددة بالعالم. إن نسبية الأنطولوجيا (العزيزة على كواين) قد أعيد توكيدها، ويبدو أنها تعززت لأنها لم تعد مقصورة على مطلب الصدق وحده في النظرية.



هوامش

(1) paradigme: قبل أن نضبط مفهوم الباراديغم نشـير إلـى أن بعض المفكرين والباحثين يستعملونه بمعنى «النموذج»، في حين تكشف الدراسات الاستقرائية في هذا الموضوع أن هذه المفردة لا تعبـر عن المعاني الكثيرة المنضوية تحت هذا المفهوم. كما أن هناك عـدة كلمات ومصطلحات في اللغات الغربية واللغة العربية، متقاربة فـي معناها العـام ومختلفة في دلالاتهـا الضيقة هي الأخرى تترجـم إلى كلمة نمـوذج مثـل: نمـط (type)، ترسـيمة (schema)، نموذج (Modèle)، مثـال (exemple)، نظريـة (Théorie)، ونسـق (Système). والحال، تختلف عبارة باراديغم عن هذه المفردات لأنها تمتلك معنى اصطلاحيًا لا تملكه أي منها.

يعود الجـذر اللغوي لـ «البارادیغم» إلـى اللغة اليونانية، وهو مشـتق من كلمة paradigma وكلمـة «النموذج» كلمـة معربة، وهي كما جاء فـي معاجم اللغة من كلمة «نموذة» الفارسـيّة، وجمعها «نموذجات» و«نماذج»، ونموذج البناء نسخة مبسطة، ومن ثم فهو يحتوي على العناصر الأساسية للبناء ولكنه يختلف عن الأصل. وقد اسـتُعيرت هذه الكلمة في اللغة العربية وتستخدم للإشارة إلى «النمـوذج» بوصفه أداة تحليلية ونسـقًا كامنًا يدرك الناس مـن خلاله واقعهم ويتعاملون معه ويصوغونه.

كما أن «النموذج» بنية فكرية تصورية يجردها العقل الإنساني من كم هائل من العلاقات، فيختار بعضها ثم يرتبها ترتيبًا خاصًا أو ينسقها تنسيقًا خاصًا، وطريقة الترتيب والتنسـيق هي التي تُعطي النموذج هويته المحـددة وفرديته وتفرده. والنموذج ليس هـو الحقيقـة أو الواقع، ولا يوجـد جاهزًا لكنه ثمـرة الملَكات الفكرية (المنطقيـة والتخيلية) للعقل. هذا، ويتسـم «النموذج» (paradigm) كأداة تحليلية بمقدرته على ربط الخاص بالعام والجزء بالكل والنتيجة بالسبب، من دون أن يفقد أي عنصر منها شـخصيته وهويته واستقلاليته، ويحاول حل المشكلة بافتراض وجود مسـافة تفصل الكل عن الأجزاء والسبب عن النتيجة. بحيث لا يمكن ردّ الكل إلى الجزء ولا يمكـن رد الجزء في كليته إلى الكل. إذ إن لكل ظاهرة منحناهـا الخاص الذي يُعطيها هويتهـا الخاصة. ولذا، يحاول

النموذج أن يرى ظاهرة ما في علاقتها بالظواهر الأخرى وهذا ما يُكسبها دلالتها العامة من دون إهمال استقلالها النسبي وشخصيتها المستقلة. وباختصار، يمكن القول إن النموذج أداة تفسيرية تصلُح لتفسير كل من الظواهر الطبيعية والإنسانية، تصدر عن تفهم لمحدودية الإدراك البشري في رصد الواقع الطبيعي والإنساني.

أما في فلسفة العلم فقد استخدم مصطلح «البراديغم» للدلالة على أن تفسير الظواهر الغامضة يتم من طريق ربطها وتنسيقها إلى بعض الأشكال القياسية للعمليات أو البراديغمات والتي يجري اعدادنا لقبولها بوصفها براديغمات مُفسِرة لنفسها.

إلا أن مفهوم البراديغم لم يحصَل على مكانته الحالية في فلسفة العلم وفي العلوم الإنسانية إلا مع توماس كون (Thomas Kohn)، حيث ربط هذا المفهوم بمفهوم آخر ذي أهمية كبيرة في فلسفة العلم والثورات العلمية. فقد ذهب «كون» - خلافًا لمن سبقه - إلى عدّ تغيرات البراديغم تغيرات ثورية تؤدي إلى تغيير جذري في البيئة المعرفية وفي العالم الذي يمارس فيه العلماء أنشطتهم. و«البراديغم» عنده هو «المنجزات العلمية المتميزة المعترف بها عالميًا والتي تُجهِز في فترة معينة موديلات للمشكلات والحلول بالنسبة لجماعة من الباحثين العلميين» (كون، **بنية الثورات العلمية**). المترجم.

(2) لعبة لغوية: هي عملية استعمال الألفاظ في نظام تواصل، ويتعلم بواسطتها الأطفال لغة الأمومة. ولكن يتحدث فتجنشتين في بعض الأحيان عن لغة بدائية باعتبارها لعبة لغوية (الفقرة 7 من **التحقيقات**)، ويؤدي هذا المفهوم الإجرائي دورًا أساسيًا في فلسفة فتجنشتين في طوره الثاني لأنه مرتبط بالفعل اللغوي ومنطق الإبهام والقواعد والتواضع الاجتماعي والدينامية الزمانية للمعاني.

نقلًا عن الثبت التعريفي الذي وضعه د. عبد الرزاق بنوّر الذي ترجم كتاب فتجنشتين، **تحقيقات فلسفية** (بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2007)، الصفحة 493. المترجم

(3) فتجنشتين، **التحقيقات**، الصفحة 251.



(4) شـكل حياة: إذا كانت اللغة تنتمي إلـى تاريخنا الطبيعي، فـإن التوافق اللازم كي نسـتطيع الحديث عن لغة وألعـاب لغوية يتطلب تركيبـة اجتماعية منتظمة في شـكل معين يسميه فتجنشتين «شـكل حياة». لذلك فأن تتصور لغة يعني أن تتصور شكل الحياة (الفقرة 19 من **التحقيقات**)، وحيث تكون اللغة معقدة يكون شكل الحياة كذلك، المصدر نفسه، الصفحة 49. المترجم.

(5) أو شبه عائلي: هو تناظر بالجملة وتناظر بالتفصيل، أي شبكة معقدة من التناظر المتداخل المتقاطع، مثل تلك التـي توجد بين أفراد عائلة واحدة، حيث لا نرى قاسمًا مشتركًا يكون أو لا يكون الشبه العائلي إلا به، بل مجموعة سمات يمكن أن تغيب وتحضر دون أن يكون أحدها موجـودًا دائمًا يربط بينها، أي كالحبل المفتول الذي ترتبط كل خيوطه من دون أن يكـون هناك خيط واحد يتواصل على طول الحبل (الفقرة 66 من **التحقيقات**)، المصدر نفسـه، الصفحة 490. المترجم.



الفصل الثامن

أوستن: كلمات من أجل الفعل





من خلال مقولة لعبة اللغة وبيان أهمية الاستخدام حتى في تحديد المعنى، ساهم فتجنشتين في إثارة حساسية الباحثين إلى بُعد الأفعال (dimension actionnelle) في اللغة. ومع أن خط الانتساب إلى فتجنشتين لم يكن مباشرًا، فإن فلاسفة أكسفورد[1] سيقومون باستكشاف وتحليل وتوضيح هذا البعد. وفي هذا المشروع ستفصح أعمال أوستن عن نفسها في شكل خاص. إذ يعود الفضل إليه في إدخال بعض التمييزات المفهومية الرئيسة والتي ما تزال فاعلة إلى اليوم، من جهة، ومن جهة أخرى إغناء تحليل اللغة وذلك في الإقرار لها بما يمكن تسميته بُعدَ الأفعال الخاص (Dimension actionnelle propre)[2].



1. بُعد الأفعال في اللغة

أ. «اكتشاف» أوستن

الإنشائيات/الخبريات

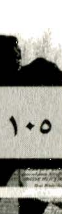
في محاضرة ألقيت عام 1958 في منطقة Royaumont قدم أوستن «اكتشافًا»، بدا له خصبًا وصعبًا التمسك به في آن. يقوم

هذا الاكتشاف على الفارق الظاهر في السلوك بين صنفين من المنطوقات: المنطوقات الإبلاغية المستخدمة («إنها تُمطر»، «القطة على الحصير») التي يسميها أوستن الخبريات، لأنها تقرر (تُخبر) وجود واقعة، ومن جهة أخرى الملفوظات التي يسميها «الإنشائيات (Performatifs)» والتي تساعد تحديدًا في إنجاز (إكمال) فِعل ما: «أقدم إليك اعتذاراتي»، «صباح الخير!»، «أعدك بالمجيء»، وغير ذلك. زد على ذلك أن الملفوظات المختلفة هذه لا تخدم الغايات نفسها ولاتشغل في الخطاب الوظيفة نفسها، إنها تميز نفسها أيضًا في علاقتها بقيمة الصدق فالملفوظات الإنشائية تبدو لا مبالية بالصدق أو الكذب، لأنه، كما يقول أوستن: «صوغ ملفوظ ما، هو القيام بفعل»[3].

من قيَم الصدق إلى قيَم النجاح

هل يعني هذا أن الملفوظ الإنشائي (énoncé performatif) عصيٌّ على أي محاولة تقويم؟ بالتأكيد لا، فباعتباره يساعد في إنجاز الفعل، فإنه خاضع للنجاح أو الإخفاق، ويمكن حتى أن يكون «ناجحًا» سعيدًا (heureux) أو «فاشلًا» تعيسًا (malheureux)، وتحديدًا بسبب الشروط التي تتحكم بالملفوظ. في الواقع، توجد عدة حالات في مقدورها جعل الملفوظ الإنشائي «فاشلًا».

- أولًا: يمكن الملفوظ أن يكون «فارغًا» (nul) أو من دون أي أثر، وخصوصًا إذا كان من يتلفظ به ليس في الوضع الذي يفترضه الملفوظ. على سبيل المثل، إذا قلت «افتَتحتُ الجلسة» من دون أن أكون رئيس الجلسة، نجد الملفوظ لا يترتب عليه أي أثر. فإذا



لُفِظت من أحد غير الرئيس، فإن هذه الجملة في أفضل الأحوال تعبر عن الحال. وإذا لُفِظَت منه ومنه وحده، فإنها فِعل (acte) الافتتاح الفعلي للجلسة.

- يمكن للملفوظ أن يكون «تعسفيًا» (abusive) أو «غير صادق» (non-sincère)، وهي الحال، على سبيل المثل، إذا قلت: «أعدك بأن آتي»، في حين ليس لدي النية لذلك مطلقًا، أو أعلم أن ذلك سيكون مستحيلًا بالنسبة إلي.

- وأخيرًا، يمكن أن يتعرض الملفوظ لنوع من التكذيب الاسترجاعي (démenti rétrospectif) ، والتي هي الحالة الأخيرة من «الفشل»، حين تظهر بقية الكلام أو الأفعال في تناقض مع ما تسمح الإنشائيات المتحققة كما ينبغي، بتمنيه: إذا تمنيت لك القدوم الميمون، لايمكنني عندها وبعدها أن أهينك وأعاملك كدخيل، من دون الوقوع في شكل مخصوص من التناقض، والذي يسميه أوستن «القطع في الالتزام» (Rupture d'engagement).

ب. قسمة صعبة

مسألة المعايير

حتى اللحظة، بدا التميز إنشائيات/خبريات (/performatif constatif) خصبًا وعملانيًا في آن. ولكن، وعقب محاضرة عام 1958 أقر أوستن بحيرته، وخصوصًا حين واجه مسألة معرفة المعايير التي تسمح بتحديد ملفوظ ما بأنه إنشائي أم لا.

من دون شك يمكن إعتبار أن الملفوظ الإنشائي يقبل شكلين «عاديين»، تكون الإنشائية (performativité) فيهما بيِّنة. الأول،

(«أعِدُك أن...») (Je vous promets de...) يتضمن فِعلًا «مضارعًا» في صيغة المتكلم المفرد، في صيغة المعلوم (à la voie active). الثاني، «يُرجى من المسافرين...» (les voyageurs sont priés...) يتضمن فعلًا مضارعًا مبنيًّا للمجهول، في صيغة المخاطب أو الغائب.

ولكن أوستن بقي مقتنعًا بأن هذه الأشكال قد لا يتم التقيد بها، ومن دون إلحاق الضرر بالطابع الإنشائي للملفوظ المعني. واعتبر هكذا أن الملفوظ «أغلق الباب» (fermez la porte) يعادل «آمرك أن تغلق الباب» (Je vous ordonne de fermer la porte!)، والنتيجة أنه إنشائي كما العبارة الأولى مع أن التركيب مختلف. فالفعل لا يقوم إلا بإيضاح ما أنجزه الملفوظ، ولكن قيمة إنجاز (إكمال) الملفوظ لايضيرها حضور أو غياب هذا «التدقيق». السبب الذي دفع أوستن للاستنتاج بعدم وجود معيار من القواعد أو الفعل لتمييز أكيد للإنشائي من غير الإنشائي.

تردد أوستن

يضاف إلى هذا صعوبة أخرى هي الخبري (le constatif)، فإذا عايّنّاه من قرب وجدنا أنه مُحمل بقيمة الفعل ومعرض هو أيضًا «للنجاح والفشل»، ما يجعل في الآن عينه من التمييز الذي جهد أوستن في إقامته هشًا. أدرك أوستن هذه الصعوبات، ولم يتردد مع ذلك في الاستنتاج وبشدة متطرفة، ولكن بإدراك أكيد للمهمات المقبلة لفلسفة اللغة «نحن في حاجة لنظرية عامة لأفعال الخطاب (actes de discours). وفي هذه النظرة ستجد نقيض الأطروحة (antithèse) إنشائي/خبري الخاصة بنا، صعوبة في البقاء»[4].



2. من الإنشائي إلى الفعل في القول (Illocutoire)

في البداية جرى تصور مقولة الإنشائي لتمييز طبقة محددة من الملفوظات ذات السلوك المخصوص، وانتهت (أي المقولة) لتدل على قيمة الفعل، التي حازت عليها بعض الملفوظات بما فيها الخبريات (constatifs) في بعض مواضع الورود (occurrences). إذًا، إنه بُعد الفِعل في اللغة هو ما تدعونا هذه المقولة إلى إعادة تفكره وهو ما يقوم به أوستن في مؤلفه الشهير «عندما يعني القول الفعل» [كيف تصنع الأشياء بالكلمات] [Quand dire, c'est faire = How to do things with word (1962)].

أ. ماذا تصنع بالكلمات؟

فعل بوساطة اللغة، فعل اللغة

إن إظهار اللغة لبُعد الفعل فيها ليس جديدًا، فقبل فتجنشتين تَعرف التقليد البلاغي عليه واستفاد منه: فماذا يعني توليد تأثيرات في المستمعين من خلال تقنيات الخطاب، إن لم يكن الفعل بوساطة اللغة؟ إلا أننا ببساطة مدعوون إلى ملاحظة أن التأثير موضوع المسألة (الإقناع) من خارج اللغة (extralinguistique)، مجرد نتيجة للخطاب، والذي هو جزئيًا يأتي اتفاقًا: فالكل ليس مقتنعًا، وأولئك المقتنعون لم يقرّوا للأسباب نفسها. غير أن بُعد الفعل، وعقب فتجنشتين، وضعه أوستن بجد في الاعتبار ولم يُستنفد في «توليد التأثير» وحده: في الواقع، هنا، ما زال القول والفعل منفصلين، في حين باتت رؤية أوستن من الآن وصاعدًا أن القول والفعل يمثلان كلًا واحدًا.



فعل القول (locutoire)، الفعل في القول (illocutoire)، الفعل بالقول (perlocutoire)[5]

ولكن ماذا يعني أن القول هو الفعل (صنع الأشياء بالكلمات)؟ فالاصطلاح يتقبل بوضوح عدة معان يجب التمييز بينها ومن ثم التلفظ بها. فقول شيء ما، هو في المقام الأول توليد بعض الأصوات (البُعدَ الصوتي): أبدًا (point)، أحد ما (quelconque)، غير أن (toutefois)، لأن هذه الأصوات أيضًا ألفاظ (vocables) أو كلمات، وحدات لغوية يطلق عليها أوستن اسم «phèmes» (الوحدة الصرفية التركيبية). نتلقى أخيرًا في الخطاب معنًى (un sens) وإسنادًا (reference) (مرجعًا) محددًا بهذا القدر أو ذاك، يحولها إلى «rhèmes» (الوحدة الدلالية)[6]، وحدات استدلالية (entités discursives). هذه «المكونات» الثلاثة مأخوذة مع بعضها تشكل «واقعة القول» (le fait de dire)، ما يسميه أوستن فعل القول (أو الفعل القولي) «l'acte locutoire».

لكن عند قول (en disant) ما يقول، ينجز المتكلم أيضًا فعلًا يسميه أوستن «الفعل في القول» (illocutoire)، لأنه لا يوجد مكان آخر أو وسيلة أخرى غير اللغة للإنجاز. على هذا النحو، بلفظنا «ينام القط»، أؤكد أنه ينام، وعند قول «انظر، إنها تمطر»، أثبِت ذلك.. إنها بالتأكيد أفعال، ولكن لا يمكن إنجازها خارج اللغة، ولا بطريقة أخرى غير توليد خطاب، لهذا من الملائم الكلام هنا عوضًا عن الفعل «بواسطة» (par) اللغة، الكلام عن فِعل اللغة (action du langage).

مع أن الفعل «بواسطة» اللغة يُحيل إلى نمط آخر من الفعل،

الفعل بالقول (perlocutoire)، الذي يتعلق هذه المرة بالتأثيرات التي أتركها في المستمعين «بواسطة القول» وليس «عند القول» (en disant).

الربط (articular)

نرى جيدًا أن المظاهر الثلاثة متلازمة: فالتلفظ بـ «X» أي فعل القول (acte locutoire) يقوم على إنجاز «Y» أي الفعل في القول (acte illocutoire) ويسمح بتوليد «Z» فعل القول (acte perlocutoire). هكذا، إذا قال أحدهم «P» فإنه يدعم هذا القول في الآن عينه ويمكن أن يُقنع به. فإذا تحددت الدلالة منذ فعل القول، فإن الفعل في القول بالمقابل لا يزال يحمل بعض قيمة فِعَلِيَّة (valeur actionnelle) وحتى تواصلية، قابل لأن يُحدِث بعض التأثيرات. ومن الواضح أن القيمة (valeur) والتأثير (effet) ليسا حياديين بإزاء الدلالة نفسها: أفلا يتضمن فهم ملفوظ ما، إلى جانب تحديد معناه اللغوي وفي الوقت نفسه تحديد قيمته واستباق تأثيراته المحتملة؟

ب. من الألعاب إلى أفعال اللغة

ما يتغير

بإدراجه مفهوم «لعبة اللغة»، كان أمل فتجنشتين جذب الانتباه إلى وجود اللغة التي استبعدها الإصلاحيون. ففي مقابل المفاهيم النحوية (التركيبية) المحض للدلالة والصدق، أظهر مزايا حقوق الاستخدام وثبات بُنية السياقات. ومن خلال مجاز اللعبة، توصل إلى الربط (articular) بين عدة أبعاد للغة:

- الفعل (L'action)، لأن اللعب يشكل نوعًا من السلوك،

- والقاعدة (la Régle)، لأن اللعب يفترض إحترام بعض القواعد،

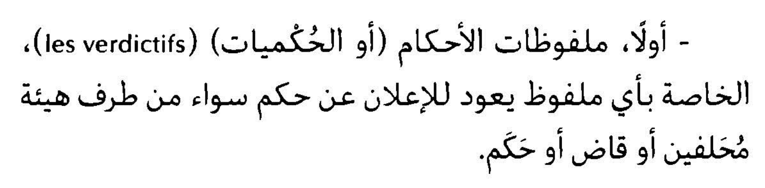
- والبعد الاجتماعي، لأن هذه القواعد تؤخذ على أنها مشتركة.

وأكثر من ذلك، من خلال الإقرار بأن ألعاب اللغة تحيل قطعيًا إلى أشكال من الحياة. فإنه أدرج الكفاءة (competence) اللغوية في قلب الكفاءة التواصلية الأكثر عمومية، والتي هي في شكل أساسي محددة ثقافيًا. وأخيرًا، ومن خلال الاعتراف بالطابع اللا-محدد لألعاب اللغة، يأخُذ عِلمًا بإبداعية اللغة غير المحدودة ظاهريًا. والحال، ولاعتبارات عديدة، يبدو البناء الأوستيني (نسبة إلى أوستن) وكأنه محاولة لمنهجة (Systématisation) الأفكار المتقدمة لفتجنشتين. هل يبدو ذلك تعديًّا على ذهنية وحرفية «التحقيقات الفلسفية»؟ ولكن أوستن لم يعد يتشاطر المفهوم العلاجي للفلسفة الذي أشاد به سلفه (أي فتجنشتين)، وآمن بالفضائل التفسيرية إلى جانب الوصفية في التحليل.

محاولة وضع علم قوانين التصنيف

جهد أوستن في شكل خاص كي ينظم ويرتب في «علم قوانين التصنيف» (Taxinomie) ما بات يُطلق عليه «أفعال الخطاب» (les actes de discours) بضمهم في مجموعات وفقًا لقيَّم الفعل في القول (valeurs illocutoires) التي يرتديها قيامها في سياق ما. وبعد محاولات عدة، توصل إلى الاحتفاظ بخمس «طبقات من الملفوظات» هي بمثابة خصوصية مميَّزة (specifications) لبُعد الأفعال، هذا المعترف به من الآن وصاعدًا في كل ملفوظ.




- أولًا، ملفوظات الأحكام (أو الحُكْميات) (les verdictifs)، الخاصة بأي ملفوظ يعود للإعلان عن حكم سواء من طرف هيئة مُحَلفين أو قاض أو حَكَم.

- تاليًا، ملفوظات الممارسة (أو المِراسيات) (les exercitifs)، الشاهدة على ممارسة سلطة أو قانون أو تأثير من طرف المتكلم.

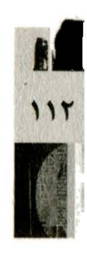
- ملفوظات الوعود (أو الوعْديات) (les promissifs) والتي يتعاقد المتكلم من خلالها ويرتبط.

- تأتي تاليًا ملفوظات السلوكات (أو السلوكيات) (les comportatifs)، التي تُظهِر احترامًا أو تبنٍّ لبعض المواقف أو السلوكات الاجتماعية (تمني الوصول بخير، الشكر، التعبير عن الأماني...).

- وأخيرًا، ملفوظات التفسير (أو التبيينات) (les expositifs)، وسميت كذلك بسبب الوظائف التي تؤديها في عملية المحاججة (أفترض أن... أستخلص من ذلك أن...).

ملاحظات

بالانتقال من الألعاب إلى أفعال الخطاب، بدأ التحليل يصبح أكثر دقة. فبالنسبة إلى فتجنشتين، أن تروي قصة، أو أن تؤدي قطعة مسرحية أو تؤدي صلاة أو تعطي أوامر، فهذه كلها ألعاب لغوية. يتعلق الأمر إذًا بصيغ مخصوصة في استخدام الخِطاب، تندرج في ممارسات ميزتها كانت تحديد بعض استعمالات اللغة. والآن، بات التمييز يجري في قلب ألعاب اللغة نفسها، على صعيد الملفوظات



المكوِّنة لـ «اللعبة». وهكذا، على سبيل المثل، يمكن لنا الاشتباه في أن «الصلاة» تستخدم وفي آن معًا ملفوظات السلوكات (عليك السلام يا مريم...) (...je vous salue, Marie) وملفوظات الوعود (أتخذ القرار الحازم...) (...Je prends la ferme résolution) وملفوظات الممارسة من النوع المخصوص (صلوا من أجلنا، أيها الخُطاة المساكين...) (...Priez pour nous, pauvres pécheurs).

خُلاصات

والحال، بدا مستطاعًا أو أقله ممكناُ النظر لا في ترتيب مختلف الاستخدامات بطريقة صارمة داخل «علم قوانين التصنيف» (Taxinomie) فحسب، ولكن أيضًا أبراز الشروط المادية (الإمبيريقية) كما الصوريِّة (المنطقية-اللغوية)، لكل فئة من الملفوظات التي جرى الحفاظ عليها ووَجَبَ أن تستجيبها لتأمل في إمكان أداء دورها بنجاح. وفي المدى القصير يعني هذا فتح الطريق لإعادة إدخال التحليل المنطقي في قلب نظرية استخدام اللغة نفسها.



هوامش

(1) اتخذت الفلسفة الإنجليزية المعاصرة «فلسفة التحليل» منهاجًا. ولما كان جورج مور ورسل الأستاذان المرموقان في جامعة كمبردج في أوائل القرن العشرين المنصرم، فقد سميت مدرستها الفكرية «مدرسة كمبردج في التحليل»، وتبعها فتجنشتين أول أمره حين كان طالبًا فيها مأخوذًا برسل في رياضياته ومنطقه، ومن ثم طرأ تغير أو تطوير لمواقفه الفلسفية في الفترة من 1930 إلى 1947، وهي فترة إقامته أستاذًا للفلسفة في كمبردج خلفًا لجورج مور، كما أن رسل كان قد أبعد عن كمبردج في تلك الفترة. سجل فتجنشتين مواقفه المتطورة في محاضرات وكتب نشرت بعد وفاته، أهمها **البحوث الفلسفية**، وفيها تراجع عن مشروع اللغة المثالية والنظرية التصويرية للّغة والذرية المنطقية. وتبنى ما سمي «فلسفة اللغة العادية». وقد تأثر به أساتذة الفلسفة في جامعة أكسفورد، وظهر ذلك في كتابات جلبرت رايل (G. Ryle) (1900-1976)، وجون أوستن (1911-1961) وستروصين (Strawson) (1919) وغيرهم. ما أدى إلى تسمية اتجاه فلسفة اللغة العادية «مدرسة أكسفورد»، انظر، محمود فهمي زيدان، **فلسفة اللغة** (بيروت: دار النهضة العربية، 1985) الصفحتان 44، و46. المترجم.

(2) انطلق أوستن، فيلسوف أكسفورد، من الفكرة بأن الوحدة الصغرى للاتصال الإنساني ليست الجملة ولا أي عبارة أخرى، بل هي إنجاز بعض أنماط من الأفعال. إن البحث عن الكلام من حيث هو فعل، ومعرفة الضروب التي يتم بها استخدام اللغة هما من المسائل الأساسية في نظرية الأفعال الكلامية التي وضعها أوستن (1962) وتابع سيرل (J. R. Searle) تطويرها. كانت مهمة نظرية الأفعال الكلامية تحديد أصناف هذه الافعال بوضع معايير ملائمة للتمييز في ما بينها.

انظر، عادل فاخوري، «نظرية الأفعال الكلامية»، **الموسوعة الفلسفية العربية**، إشراف معن زيادة (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1988)، المجلّد 2، الصفحة (1343 - 1330) .1330. المترجم.

(3) راجع:

La philosophie analytique, cahiers de Royaumont (Paris: éd. de' Minuit, 1962), p. 271.



(4) المصدر نفسه، الصفحة 279.

(5) ثمة اجتهادات عدة في وضع هذه المصطلحات الثلاثة بالعربية، فعلى سبيل المثل يترجمها منصور العجالي كالآتي:

- فعل التلفظ Locutionary Act
- فعل قوة التلفظ Illocutionary Act
- فعل أثر التلفظ Perlocutionary Act

في ترجمته وعرضه «فعل الكلام... كيف تنجز الأشياء بالكلمات- نظرية أوستن»، العرب أونلاين، 2003/7/30.

في حين يترجمها دغفوس، على التوالي، على هذا النحو:

- العمل القولي
- العمل المتضمن في القول
- عمل التأثير بالقول

سيف الدين دغفوس، مترجم كتاب آن روبول وجاك موشلار، **التداولية اليوم، علم جديد في التواصل** (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2003)، أما الدكتور صلاح عبد الحق فيترجمها على التوالي:

- الفعل التعبيري
- الفعل الغرضي
- الفعل التأثيري

انظر، **التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد**، الصفحة 183.

ونحن اعتمدنا الترجمة التي وضعها عادل فاخوري لها ولمصطلحات أوستن الأخرى، وهو يشرح تركيبها على النحو الآتي:

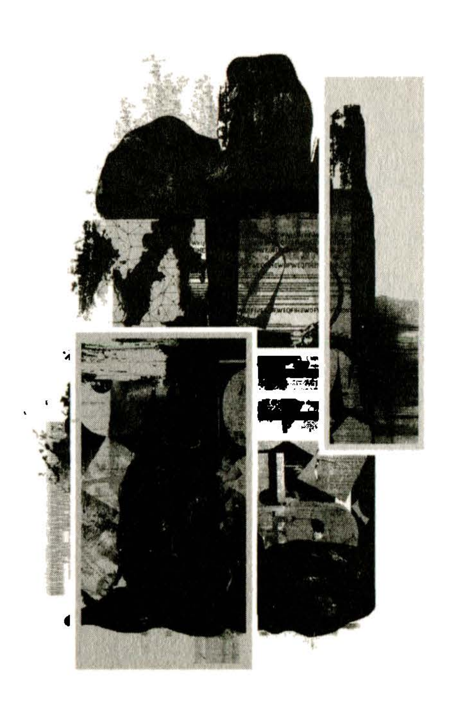
- فعل القول act Locutionary وأيضًا: الفعل القولي (أو: القول Locution) مجرد القول هو بحد ذاته فعل وذلك من أكثر من وجه.

- الفعل في القول (illocutionary act)، وأيضًا: الفعل الداخل في القول (أو المـا في القول - illocution) (تركيب لاتيني من: في = in، و: قول، كلام =



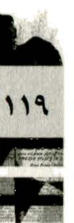
locutio). والفعـل يتم إنجازه في قـول ما. ومن لوازم هـذا الفعل أن تختص كل عبارة بقوة أو بقيمة داخلة في القـول (illocutionary force)، مثل التوكيد والأمـر والوعد والتمنـي والعقد... إلى آخره. أمـا تعيين تلك القـوة فيعود إلى أصناف العبارات والسياق الذي تُنطق فيه.
«نظرية الأفعال الكلامية»، **الموسـوعة الفلسـفية العربية**، المجلد الثاني، الصفحة 1332. المترجم.

(6) ترجمة مصطلحَـي Rhème وPhème من صلاح عبد الحق، **التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد**، الصفحة 184. المترجم.



الفصل التاسع

نظرية أفعال اللغة





أدرك أوستن باكرًا جدًا ضرورة التوصل إلى مذهب (Doctrine) قادر وبشكل موحد على معالجة أغلبية أفعال الخطاب. وقد رسم الخطوط الأولى لأعماله، وخصوصًا محاولته إقامة علم قوانين التصنيف (Taxinomie)، بيد أنه لم يتجاوز هذه المرحلة المذكورة. وسيعود لخلفائه وخصوصًا سيرل (Searle) وفاندرفيكين (Vanderveken)، مهمة إنجاز البرنامج الأوستيني (نسبة إلى أوستن) وإضفاء طابع النظرية على مذهبه.

1. من المذهب إلى النظرية

لقد أدوا مهمتهم بتفوق، وتحديدًا عملية الوصف المنظم لتوليد العبارات في لغة ما (Formalisation) والذي سيتوج بإنشاء «منطق ما في القول» (Logique illocutoire) والذي يسمح للتحليل المنطقي أن يلتحق بالمجال السائل والمتغير على نحو غريب لاستخدام اللغة.

أ. نحو تعريف فعل اللغة

نقطة البدء

حفظ سيرل (1932) عمل أوستن أن كل ملفوظ، حتى ولو كان خبريًا (Constative)، يمكن له في السياق أن يرتدي قيمة فِعَليَّة (Vateur actionnelle) فالتكلم (Parler) بالتأكيد شكل من السلوك، ولكن هذا الأخير لا يصبح حاملًا للدلالة (Vecleur de signification) إلّا في ظل بضعة شروط، يجب إبرازها وايضاح صيغها العمليانية. وهذا ما أنكب عليه سيرل أولًا، في مؤلفه **أفعال اللغة**[1].

ماذا يعني التكلم بحسب سيرل؟

تبعًا لدرس بول غريس (P. Grice 1988- 1913) في «المعنى» (*Meaning*, 1958)، حفِظ سيرل في المقام الأول أن التكلم سلوك قصدي (Comportement intentionnel)، ما يعني أنه يجب أن يكون واضحًا عند المُتلقي (allocutaire) بأن السلوك اللفظي للمتكلم يُفترض أن يكون محملًا بالمعنى. يتعلق الأمر مجددًا بسلوك تحكمه قواعد ذات طبيعة متنوعة. لأنه، وإزاء القواعد اللغوية المحض (اللسانية (linguistiques) والتي تحدد قواعدية (grammaticalité أي استجابته شروط قواعد اللغة) التعبير المستخدم، من الأنسب إضافة تلك التي تخص وضع الملفوظات في التداول الاجتماعي، والتي تحدد بالتالي ومن باب أولى ظروف توليد الملفوظات (التلفظ) (les énonciations) (أو بُنية القول) بدلًا من الملفوظات (les énoncés).



ب. لحظتا المسار

في الوصف

تحقيق فعل اللغة مرتبط إذًا باحترام جملة من الشروط يسمح الوصف بتحديدها، والتي يتوجب بيانها في التعريف «الشكلي» لفعل اللغة. ميزة سيرل أنه وضع في الحسبان إلى المخطط الوصفي المنظم لتوليد العبارات (plan formel) تحديدًا، البُنية النسق (structure) كما اشتغال الفعل في القول (acte illocutoire).

في ظل بعض الشروط يُشكل ظرف توليد الملفوظ (التلفظ) (l'énonciation) في سياق ملفوظ مخصوص إتمامًا لفعل في القول، وهو ما تم فهمه من المستمعين الأكفاء. فإذا، ما كنت على الطاولة وقلت لأحد الضيوف: «أيمكنك الوصول إلى المملحة؟»، فإنه سيعطيني الغرض ويعرف أن هذا هو «الرد» الوحيد الملائم. هذا يعني أن سؤالي (نمط نحوي في الملفوظ) يشكل في الواقع طلبًا (الفعل في القول)، وعلى هذا الشكل فَهِمُه. نعم، الأمر على ما نظن، فإن «الفعل في القول» حقًا هو ما جرى فهمه. إذًا، لم تعد تؤول إلى القضية وحدها وظيفة «حامل الدلالة»: لقد أصبحت من الآن وصاعدًا أفعال اللغة هي وحدات الدلالة في استخدام وفهم اللغات الطبيعية.

نحو الوصف المنظم لتوليد العبارات (à la formalisation)[2]

يتواشج في فعل اللغة مُكوِنًا قضويًا (من قضية) (propositionnelle) ومكونًا فِعليًا (actionnelle) والذي يسميه سيرل من بعد أوستن (وفريجه) «قوةً» داخلةً في القول (la «force» illocutoire) بُنيته

ثنائية: قضية (محتوى قضوي) تمارس «القوة» أثرها فيها؛ شكليًا: F (P) (قوة (قضية)). بتطبيقها على المحتوى القضوي، تُميز القوة في السياق قيمة فعل توليد الملفوظ (l'énonciation)، على هذا النحو، هل القضية «جان يدخن» تعبر بدورها عن إثبات (توكيد)، عن تمني (حبذا أن جان يدخن!)، عن سؤال (هل جان يدخن؟)، عن أمر (دخِن، جان!)، إلى غير ذلك. والحال، فهذا العرض لفعل اللغة يسمح بالقيام بعمليّة تحليل. وانطلاقًا من بيان مكونات القوة الداخلة في القول، يتيح ذلك الأمر قيام علم جديد لقوانين التصنيف (Taxinomie) ما زال ينظر إليه على أنه «كلاسيكي».

2. قوانين التصنيف لأفعال اللغة

كي نفهم كيف «تعمل» القوة الداخلة في القول، من المناسب تحديد مختلف العناصر التي تستخدمها. سيرل (في **التعبير والمعنى**)[3] وفندرفيكين (في **أفعال الخطاب**)[4] أبقيا على ستة قوانين، كُلية الحضور رغم التغيرات المحلية، ويمكن عندها أخذها على أنها مكوِنَةَ (constitutifs).

أ. «مكونات» القوة الستة

الهدف الغرضي (Le but illocutoire) (أو الغرض الداخل في القول)

المتكلم الذي يستعمل في سياق ما ملفوظًا مزودًا ببعض القوة، يُريد من ذلك في الآن نفسه إنجاز فعل ما، والحصول على بعض الأشياء. أطرح سؤالًا، لأني أرغب في معلومة، أُعطي أمرًا لأني أريد منك أن تنجز عملًا ما... وعلى هذا المنوال. على ظروف توليد



الملفوظ أن تسمح إذًا للمتلقيّ أن يحدد الغرض الداخل في القول، والذي يُعطي «قصد المعنى» (L'intention de sens) عند المتكلم. الغرض الداخل في القول مكوِن جد مُهم للقوة، جزئيًا لأنه يحدد التالي:

اختلاف في اتجاه المطابقة بين الكلمات والعالم (La direction d'ajustement)

يُلاحظ سيرل أن ملفوظًا ما لا يمكن إذاعته إذا لم يلتزم علاقة ما بين اللغة والعالم: ففي حين يقول الإثبات (assertion) (أو التقرير) ما هي عليه الأشياء، على اللغة هنا «التكيف» مع حال الأشياء حتى يكون الإثبات صحيحًا. فالأمر لا يُطاع أو يحافظ على الوعد إلا إذا «غيَّر» حدث ما حال الأشياء ليجعلها ملائمة لما تنطق به القضية. الأمر الذي أوجهه إليك لتغلق الباب يفترض أنه ليس كذلك، ولا يُطاع (= يتحقق Succès) إلا إذا وُجد الباب مغلقًا في اللحظة التالية بعنايتِكَ. وجهة المطابقة هي هنا من العالم إلى اللغة[5].

الشروط التمهيدية (Les conditions préparatoires)

لا يُنجز الفعل في القول عمليًا إلّا إذا جرى الالتزام ببعض الشروط التي تعود لجملة من الافتراضات. يقود عدم التقيد بها إلى جعل الفعل غير مؤثر (acte inopérant). فهكذا، ليس في مقدوري إعطاء أمر إذا لم يكن عندي سلطة على المتلقّي، ولا أستطيع أن آمُرَك بشيء ليس في مستطاعك القيام به. وأي خرق بالنسبة لهذه الشروط المسبقة يجعل الفعل مُختلًا (défectueux).



شرط الصراحة (La condition de sincérité)

كي يكون حقًا، على الفعل أن يكون صريحًا أيضًا، أي إنّ على المتكلم أن ينوي حقًا ما يُظهره الغرض الداخل في القول للفعل المنجز. أذا أكدت، أعتقد؛ إذا طلبت، أرغب؛ إذا وعدت، لدي النية في... إلى آخره.

شرط المحتوى القضوي

(La condition sur le contenu propositionnel)

في بعض الحالات، من المهم أن يُلبي المحتوى القضوي بعض الموجبات، وإلا فإن الفعل كأنه لم يكن. وهذا واضح في حال الوعد، لأني لا أستطيع قطع الوعد إلا باسمي الخاص، ولا أستطيع أن ألتزم إلا في فعل مستقبلي: القضية تكون حينها بصيغة المتكلم وفي المستقبل.

اختلاف في العزم في عرض الغرض الداخل في القول

(Le degré de puissance du but)

أخيرًا، الغرض الداخل في القول يمكن أن يَظهر بطريقة قوية إلى هذه الدرجة أو تلك: التطلب (exiger) هو أكثر من الطلب (demander)، التوسل (supplier) هو أكثر من الرجاء (prier)، إلى غير ذلك.



ب. مترتبات على قوانين التصنيف

وضع معيار للتصنيف

ميزة تحليل مكونات القوة أنها قدمت معيارًا يسمح بترتيب أفعال الفعل في القول بدقة لم يستطع أوستن بلوغها. ويمكن لاتجاه المطابقة بين الكلمات والعالم أن يؤدي هذا الدور، حسب سيرل. ولا شك في أنّه ثمة تنوع لا محدود لاستخدام ممكن للّغة ولأفعال الفعل في القول كذلك، ولكنها ترجع لعدد صغير من «الأنماط»، لأن وسائل المطابقة بين اللغة والعالم محدودة العدد.

ويَسمح اتجاه المطابقة بتحديد القوى الداخلة في القول «الأولية» (primitives)، والتنوع اللا-محدود للأفعال في القول المتفرعة من هذه الأخيرة بواسطة لعبة مفتوحة نسبيًا لمكونات القوة الأخرى، ولكن الثابتة بإزاء السياقات المختلفة.

التصنيف

يُبقي سيرل على خمس قوى «أولية» تسمح بتوليد مجمل الأفعال في القول الممكنة من خلال تطبيق بعض العمليات المُعادة. هذه القوى «الأولية» هي:

- **قوة الإثبات** (La force assertive) **(الإثباتيات)**، حيث وجهة الضبط هي (اللغة ← العالم). توكيد، ملاحظة، استنتاج... إلى آخره. تتأتى من هذه القوة، وتوافق الملفوظ مع حال العالم الموصوف يضمن في هذه الحالات صدق الملفوظ.

- **القوة الموجهة** (La force directive) **(التوجيهيات)**، وتخص

الأفعال التي بواسطتها يحاول المتكلم الحصول على تغيير في العالم، وهذا التغيير هو من صلاحية أو من مسؤولية المتلقّي. وجهة المطابقة هنا (العالم ← اللغة)، لأنه يجب «تحويل العالم لجعله ملائمًا للملفوظ».

- **القوة الوعديّة (الوعديات)** (La force engageante promissive)، وتخص الأفعال حيث إنجاز التغيير في العالم هو بمبادرة أو على عاتق المتكلم. وجهة المطابقة هي نفس الموجودة في الحالة السابقة، يتغير «المسؤول» عن التغيير المنشود فحسب.

- **القوة التصريحية (التصريحيات)** (la force déclarative)، وتخص كل الأفعال التي من خاصيتها إنشاء الموقف في الوقت نفسه التي تصفها فيه. على سبيل المثل، حين يُعلن الرئيس «فُتِحتَ الجلسة»، نجد الملفوظ صحيحًا لأن الجلسة افتتحت بطبيعة الحال (Ipso facto) في نفس اللحظة التي جرى فيها توليد الملفوظ. يصف الملفوظ إذًا تغييرًا في العالم حصل بواسطة عملية توليد الملفوظ نفسه. من هنا نرى، يلاحظ سيرل، تقاطع وجهتي المطابقة في الملفوظ: (اللغة ← العالم) حيث يصف واقعة حاصلة؛ (العالم ← اللغة) حيث يصف ما قد أقامه. «الاتجاه المزدوج» هو إذًا خاصيِّة الفعل التصريحي (déclaratif).

- **القوة التعبيرية** (la force expressive) **(البوحيات)**، والتي تتميز بغياب الصلة بين اللغة والعالم: تعبير بسيط لحالات نفساوية يمكن أن تكون مستقلة، أي غير متلائمة مع موقف معين. «الوجهة الفارغة» (La direction vide) هي خاصية الفعل التعبيري (l'expressif) (أو البوحي).



3. فتوحات وآفاق جديدة

أ. عودة المنطق

تميزت بحوث سيرل وفندرفيكين بمنهجها كما بالذهنية التي سادت فيها، عن تلك التي اعتاد أوستن ممارستها. فمكان توصيفات هذا الأخير الدقيقة، ذات الفضل في تعيين الفوارق الدقيقة، في استخدامات اللغة والشائبة التي تخللتها في عدم استجابتها إلا بشكل غير كامل لمختلف المعايير التي اقترحها (أوستن) من أجل ترتيبها، سيحل الآن تحليل يتجه بالكامل نحو وصف منظم لتوليد العبارات (النسق الصوري) والذي سينتصر عام 1985 في المؤلف الجمعي **أسس منطق الما في القول** (*Foundations of illoctionary logic, Fondements de la logique illocutoire*)، حيث الاستدلالات فيه معتبرة من نواح عدة.

تجديد المنطق

لأنه وبعد فاصل زمني من المقاربات «الوصفية» للّغات الطبيعية، وقع تجديد في التحليل المنطقي. ففي الواقع، يجب الإقرار بأن «انكفاء» المناطقة كان لمدة قصيرة. فما أن وضع نقد التيار «الإصلاحي» اللغة العادية في مقدم المشهد حتى انبرى المناطقة لإدراك طبيعتها واشتغالها بأدوات منطقية، وحتى مُبتدعة للمناسبة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وهذه المرة من دون الانشغال بِهَمّ الإصلاح، ولكن يمكن وفي تواضع لمجرد الشرح. وقد قادها كل من أ. شرش (A. Church)، د. لويس (D. Lewis)، د. كابلان (D. Kaplan)، ج. هنتيكا (J. Hintikka)، س. كريبكه (S. Kripke)، ر.

مونتاغ (R. Montague)، ولم تكتفِ هذه الأعمال «بإعادة» حقوق التحليل المنطقي، بل ساهمت في تجديده في العمق وتوسيع صلاحياته على نحو مُعتبر.

الأراضي الجديدة لرجل المنطق

بعيدًا من انصرافه إلى القضايا البوحيِّة (Propositions déclaratives) فحسب، سيتصدى التحليل اللغوي من الآن وصاعدًا لملفوظات من أي نمط نحوي (تركيبي) كانت، ويُحلل بالتفصيل مسلكها في السياق (comportement en contexte). وهكذا وجد المنطق «الكلاسيكي» لفريجه ورسل نفسه، شيئًا فشيئًا، وقد بُدلَ بـ «بناءات» مختلفة: المنطق المفهومي (المضموني) (la logique intensionnelle) الخاص بشرش ولويس والذي بات يُعالج القضية مثابة «معنى الملفوظ» (sens d'énoncé)؛ ومنطق «المواقف القضوية» (la logique des attitudes propositionnelles) العائد لهنتيكا وكريبكه والذي يعالج القضية بمثابة «محتوى الحالات العقلية»، وعلم دلالة ثبت المفردات (La sémantique indexicale) لكابلان والذي يفتح سِجل الأشياء التي تُعرف بالإشارة (Registre d'ostension) أمام التحليل، والبراغماتية (التداولية) الشكلية لمونتاغ، والذي يُبين إمكانية وصف منظم لتوليد العبارات (formaliser) لأجزاء كاملة من اللغة الطبيعية.

ب. مكانة منطق «ما في القول»

منطق الاستخدام

يُجري منطق «ما في القول» (la logique illocutoire) توليفًا اندماجيًا يسمح أخيرًا بالوصل في نظرية «تصف توليد العبارات» (Théorie



(formalisée)، ما بين جوانب «قابلية الصدق» (vériconditionnels) وجوانب «ما في القول» (illocutoires) التي تظهرها أفعال اللغة.

منظورًا إليها كـ «معنى الملفوظ»، و«مضمون الافعال في القول»، و«مضمون الحالات الذهنية»، لم تعد القضايا تقوَّم فقط بحسب قيم الصدق وحدها، ولكن أيضًا وفقًا لنجاح (succès) الأفعال (أي كونها موفقة) حيث تظهر، داخل وصفٍ لتوليد العبارة (formalism) موحّدٍ أخيرًا.

منطق فلسفي

بات جليًا أن العلاقات المنطقية التي تَعمل في استخدام وفهم اللغة ليست من طبيعة قضوية (propositionnelle) فحسب: إنها تتعلق أيضًا بالقوى (les forces) والأفعال في القول. ظروف توليد العبارة (التلفظ) (L'énonciation) في سياق بعض الملفوظات تتيح إنجاز فعل في القول، والذي هو منطقيًا مشدود لأفعال أخرى ممكنة في عالم الخطاب. والحال، يُظهر المتكلمون عادة قابليتهم لامتلاك ناصية هذه «الشبكة» معرفيًا. تذهب كفاءاتهم الاستدلالية (inférentielles) إذًا إلى ما هو أبعد من مجرد علاقة تضمنية بين القضايا، جرى تفضيلها طويلًا. يسمح منطق «ما في القول» وعلم الدلالة العام (La sémantique générale) الذي يعدّ امتدادًا للأول عند فندرفيكين، بإعادة بناء أنماط مختلفة من الاستدلال: «قابلية الصدق» (Véríconditionnelle) بقدر «ما في القول»، وتحديد علاقتهما المتبادلة. ليس حيث تنعقد، ولكن بإزاحتها، مع محاولة فتجنشتين رسم الحدود بين ما يمكن قوله (dicible) وما يمكن التفكير به (pensable) من داخل اللغة لأنه، ومن الآن وصاعدًا، لم



تعد هذه الدالة (function) قائمة في الشكل المنطقي للقضية وتماثلها (أو تشاكلها Isomorphism) مع الوقائع، ولكن داخل بُنية منطقية للأفعال في القول والتي من الممكن إنجازها (تحديد تخوم ما يمكن التفكير به) واستجابة مطالبها (تحديد تخوم العالم، أو التجربة).



هوامش

(1) انظر الكتاب وترجمته الفرنسيّة:

Seepch Acts, 1969; Les actes de langage, 1972.

(2) أو النسق الصوري (الشكلي). فكما يقول السيد نفادي: إن البحث أو المنهج أو المفهوم المتعلق بتعبيرات اللغة يسمى صوريًا (formal)، إذا كانت استدلالاته التطبيقية لا تتعلق بدلالة التعبيرات وإنما بصورتها فحسب، أي بأنواع العلامات التي تكوّن تعبيرًا ما والترتيب الذي به يتكوّن.

نقلًا عن، السيد نفادي «السيميوطيقا وعلاقتها بالفلسفة والعلم عند كارناب»، **مجلة عالم الفكر** (الكويت، يوليو/سبتمبر، 2002)، المجلّد 31، الصفحة 54. المترجم.

(3) Expression and Meaning; 1971.

(4) Les actes de discours, 1988.

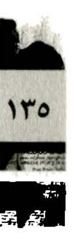
(5) لقد اعتمدنا على ترجمة عادل فاخوري للمصطلحات التي استخدمها سيرل، وهو يفصل «اتجاه المطابقة» كالآتي: «من لوازم غرض بعض الأفعال الداخلة في القول جعل الكلمات، أو على وجه التدقيق، محتوى القضية مطابقًا للعالم أي للخارج، بينما غرض البعض الآخر هو جعل العالم مطابقًا للكلمات. فالخبر مثلًا هو من الفئة الأولى، أما الطلب والوعد فهما من الفئة الثانية [...] هذا الفرق في الخاصية المذكورة يطلق عليه سيرل اسم الاختلاف في اتجاه المطابقة».

انظر، «نظرية الأفعال الكلامية»، **الموسوعة الفلسفية العربية**، الجزء الثاني، الصفحة 1334. المترجم.



الفصل العاشر

أبعد من أفعال اللغة



في داخل فلسفة اللغة المعاصرة، باتت نظرية أفعال اللغة تشغل مكانًا رئيسيًا. فالجهاز التصوريّ الذي أتاحت تطويره غدا مطلوبًا بإلحاح على نطاق واسع وذهب ليمتد في إتجاهات مختلفة.



1. تطوير، امتداد

تُقاس مُساهمة نظرية أفعال اللغة في فلسفة اللغة المعاصرة بتعيين مواضع التطويرات الداخلية التي عرفتها بدفع من سيرل وفندرفيكين، قبل أن يتابع مفكرون آخرون المهمة. هذه التعديلات الأولى (أو التنقيحات)، والتي أتاحت للنظرية أن تزيد بإطراد حقل اختصاصها إلى حد التحاق نظرية الذهن (La théorie de l'esprit) بتحليلية الفعل الجمعي، تجِد مصدرها (أي التعديلات) في الوعي المبكر الذي ظهر لتقييدات النظرية في حالتها الأولى.



أ. نحو الأفعال المركبة

الأفعال المشروطة

هكذا على سبيل المثل، سرعان ما سجلت حضورها من واقعة أن البُنية الشكلية المعتبرة في الأصل خاصية للأفعال في القول، ونعني قوة (قضية) (F (P)) [أو: ق (أ) حيث «ق» مختصر قوة و«أ» قضية ما] لم تكن صالحةً إلا للأفعال الأولية (actes élémentaires) ولا يمكنها الادعاء أنها تستنفد القائمة الكاملة للأفعال في القول الممكن. لنأخذ الملفوظ الآتي مثلًا: «إذا ربحتَ، أعدك بأن أدعوك إلى المطعم». من الجليِّ أن له شكلًا أكثر تعقيدًا. فالوعد هنا لايظهر حقًا إلّا إذا حدثت واقعة قبلًا أو تحققت، فالوعد إذًا مشروط. والشكل الصحيح لهكذا فعل سيكون بالحري «((P.F) (Q)): أ ← ق (ب) (حيث «ب» قضية أخرى)».

الأفعال الصلحيّة (les actes transactionnels)

بطريقة أكثر دلالة أيضًا، ندرك أن بعض الأفعال لا تحصل حقًا إلا إذا «شارك» المُتلقي بطريقة ما في تحقيقها».

إذا قلت على سبيل المثل «أراهن بعشرة فرنكات على الرقم ستة»، فلا يشكل هذا وحده رهانًا بَعد، فمن الضروري على المتلقي أن يجيب «مقبول»، يعني قبوله الرهان، مايجعله حاصلًا. ويظهر أن هذه الأنماط المختلفة من الفعل، وعلى الرغم من اختلافاتها، إلا أنها ذات نتائج مشتركة واستدلالات كبيرة.



ب. نتائج

من الفعل إلى التعاقب

يظهر من جهة، أننا لا نستطيع أن نُبقي على اعتبارنا للأفعال المعزولة فحسب؛ ففي سياق التبادل اللغوي يكتسب ظرف توليد ملفوظ ما (énonciation) (أي التلفظ) قيمة الفعل في القول. يجب إذًا التوصل للنظر إلى فعل اللغة في علاقاته المنظمة (المضبوطة) مع ما يسبقه وما يليه في داخل تعاقب الخطاب، ومن ثم تعيين الطريقة التي تنتظم فيها المقاطع المتعاقبة في وحدة استدلالية أكثر اتساعًا، محادثة ومفاوضة، ومنازعة، ومحاورة، وغير ذلك.

... وإلى «الفعل الماكروي» (Macro - acte)

من أجل إدراك العلاقات بين الأفعال في القول داخل المقطع (séquence) ومن ثم على مستوى التبادل اللغوي التام، طور ت. أ. فان ديك (T. A. Van Dijk) في مؤلّفه **دراسات في تداولية الخطاب** (*Studies in the pragmatics of Discours*) (1981) مفهوم تداولية الخطاب، مُبَيِنًا البُنيات الماكروية (الكبرى): الدلالية (sémantiques) والتداولية في آن معًا.

فإذا كانت الأولى من طبيعة توضح المبادئ المختلفة للوحدة وهي تعمل في الخطاب، التيمات (Thématisation = الموضوعات) والترابط والتماسك، فإن الثانية تسمح بإدراك وثاقة (La pertinence) توليد الملفوظات بإزاء الهدف المطلوب في التبادل، والمُستمثل (assimilable) مذّاك في كليته بفعل ماكروي للّغة (Macro- acte).



من الفِعلي إلى الصلحيِّ (De l'actionnel au transactionnel)

ومن جهة أخرى، فإن إبراز وبَيانَ البعد الصلحي يسمح بإدراك أن على التوجه القصدي (intentionnelle) والحوار الذاتي (monologique) المهيمن على نظرية أفعال اللغة في بداياتها أن يعدل في اتجاهه بطريقة تفسح في المجال أمام هذه المشاركة من المتلقي بتحقيق حتى الفعل في القول. وسيعزز هذا التطلب أيضًا من خلال الاعتراف بالأفعال التي تسمى «غير حَرفِيَّة» (nonlittèraux).

2. الأفعال غير التوجيهية ورهاناتها

أ. الأفعال غير المباشرة

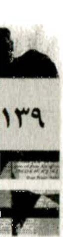
تعريف

نتذكر تعريف فعل اللغة الذي اقترحه سيرل في شكل أولي: إنجازه يمر من خلال سياق التوليد (التلفظ) (énonciation) الحرفي والمخلص والجاد لبعض الملفوظات في سياق من التواصل.

والحال، يظهر أن سياق توليد بعض الملفوظات، وعلى الرغم من انتهاكه في شكل جليٍّ لبند الحَرفية (littéralité)، فإنها بقيت تعدّ من أفعال اللغة الحقة.

مَثَل

لنتخَيّل الوضع الآتي: نحن في غرفة شديدة التدفئة، ومغلقة النوافذ، وفجأة أصيح: «يا إلهي، إني أختنق!». فهل هذا مجرد إظهار لحالتي الحاضِرة؟ من دون استبعاد ذلك، وهذا محتمل: يكفيني



فتح النافذة كي أعالج هذا العارض الطارئ. فإذا لم أفعل ذلك واكتفيت بالصياح، ألا يشكل ذلك قرينة أني أنتظر مِنك أنت أن تفتح النافذة؟ فإذا ما دَفع توليد الملفوظ الحرَفي إلى التفكير بأني أحقق فِعلًا تعبيريًا، فإن تقويمه في السياق يسمح بالظن أنه بالحري فعلًا توجيهيًا (directif): إني أطلب منك، وأيضًا بطريقة غير مُباشرة فتح النافذة، والذي يبدو في الوضع المحدد هذا أكثر ملاءمة.

ب. ماذا تُعلمنا الأفعال غير التوجيهية من وجهة النظر التقنية

من وجهة نظر تقنية بحتة، يتعلق الأمر بالنسبة للنظرية بمجرد توسعة (élargissement)، فالأفعال غير المباشرة تُظهر أن القيمة الداخلة في القول (la valeur illocutoire) في أثناء توليد الملفوظ لا تسمح إلا نادرًا بـ«الاستنباط» من مكونات القوة الداخلة في القول (la force illocutoire) وحدها، ولكنه يتطلب أن يُميَّز بحسب سياقات الاستخدام الفعلية. وفي الأساس (Ab initio) نأخذ دائمًا ومن ناحية المبدأ الفعل أنّه حَرفي (littéral) ولكن حين يَظهر فارِق بين الغرض الداخل في القول (le but illocutoire) للفعل المأخوذ على أنه حَرَفي وظروف توليد ملفوظه، ينبغي البحث في ما إذا كان هذا الفعل، في الواقع، في خدمة فعل آخر، تحقق في شكل غير مباشر من خلال اللجوء إلى الأول. المهم هو المكانة المعترف بها للمتلقي، فهو من يأخذ على عاتِقه حين يكتشف فارقًا بين الفعل المنجز والوضع الذي استخدم فيه، وبسبب من كفاءته اللغوية ومن تحكمه الجيد بالسياق ومن معرفته للخلفية، يأخذ على عاتقه «إعادة بناء» الفعل المنجز حقًا.

من وجهة النظر الفلسفية

ما يظهر هُنا إذًا، في نوع من «عطفة تفسيرية»، هو مجددًا مكانة ودور المتلقيِّ في تحديد القوة الداخلة في القول الخاصة بالفعل (la force illocutoire de l'acte). في الحقيقة، تبقى هذه المكانة عند سيرل وفندرفيكين في حدودها الدنيا: يتعلق الأمر بمجرد «إعادة بناء» من قِبل المتلقيِّ، بما يحفظ «قصد المعنى» (l'intention de sens) عند المتكلم. ولا يتراجع هذان المؤلفان عن التوجه القصدي والكلام الذاتي (المونولوجي) الثابت من نظريتهم. وحول هذه النقطة بالذات سيتوجه النقد الأكثر خصبًا وجذرية. وخصوصًا نقد فرنسيس جاك (F. Jacques)[1].

من الصلحيِّ إلى التفاعلي (Du transactionnel à l'interactionnel)

بسبب من تعلقهم بوجهة نظرهم حول القصدية والكلام الذاتي، بقي سيرل وفندرفيكين في حدود مفهوم ضيِّق للتواصل اللغوي (Communication linguistique)، المأخوذ على أنه مجرد نقل لمعنى منتج دائمًا ومن جانب واحد من طرف متكلم «سيِّدَ». بيد أن هذا المفهوم، وإن كان يسمح عند الاقتضاء، الالتزام - مقابل بعض التعديلات - بالبُعد الصلحيِّ (transactionnelle) للدلالة، فإنه لا يبلُغ مع ذلك بُعد «العلاقة الخطابية المتبادلة» (interlocutive). ومع ذلك، فهنا، وهنا فقط، يمكننا أن نأمل بتطوير مقاربة غير اختزالية للتواصل اللغوي، يجري الالتزام بها بكليتها، متمفصلة أخيرًا في جوانبها المتعددة.



3. البُعدَ الخطابي المتبادل (La dimension interlocutive)[2]

أ. ماذا يعني التواصل؟

نقد النماذج الكلاسيكية

تعود إلى فرنسيس جاك حقوق إقامة البعد الخطابي المتبادل لكلام المتحاورين في فلسفة اللغة. ولذلك اقتضى الأمر التحرر من المفاهيم المستخدمة للدلالة وللتواصل اللغوي، سواء تلك الخاصة بجاكوبسون (Jakobson) أو غريس (Grice)، والتي تبناها سيرل جهارًا. وهي مفاهيم مقيدة دائمًا بمنظار المخاطَب (التلقي) (allocative) وحسب، مختزلة الاتصال في أسوأ الحالات إلى مجرد نقل (transfert)، وفي أحسن الحالات إلى تبادل (échange).

«الوضع الأصلي للدلالة»

إذا كانت النماذج التوجيهية والقصدية غير كافية، فذلك بسبب تجاهلها الطابع الذي لا يمكن اختزاله والأصلي تمامًا للعلاقة الخطابية المتبادلة (interlocutive): إنها تتقوم بألفاظها: (في؛ من) (en) هذا (ceci) الذي (que) بواسطة (par)، هي (elle)، والأفراد (الذين هم الحوامل supports، وليسوا ألفاظ العلاقة)، الذين يؤمنون تباعًا أدوار المتكلم والمتلقي أثناء التبادل في دورة الكلام، ويرتقون إلى مصاف السلطة التلفظية (instances énonciatives) وهم مشاركون في المسار الدلاليّ. عندما تقوم العلاقة على هذا النحو ضمن حدود قواعدها، فإن الوضع الأصلي للدلالة يقود إلى ثلاث مجموعات من الشروط:

- وجود لموادِ دالة (matériau signifiant) (شفرة اللغة أو محور



الاختلاف (axe de la différence))؛

- وحقيقة ما فوق لغوية (extra- linguistique): «العالم» (le monde) الذي يأخذه متبادلو الخطاب على أنه مرجع، والذي يحدد محور الإسناد (أو المرجع) (L'axe de la référence)؛

- ومتبادلون للخطاب ضمن علاقة (بواسطة وعندهم تدل الكلمات على شيء، محددة محور مسار الملفوظ بين متبادلي الخطاب) (L'axe de l'interlocution)؛

عندها، لايعود الكلام مجرد قول شيء ما لأحدهم: إنّه شيء أكثر أساسيةً، أن تقول في خصوص شيءٍ ما شيئًا ما مع أحدهم.

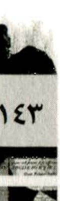
ب. الحوارية والحوار

تعريف حواري للدلالة

بات في مقدورنا أن نقيس الفارق الذي يفصلنا عن المفاهيم القصدية والمونولوجية (الكلام الذاتي) للدلالة.

فالدال (signifier) لم يعد يخضع للتحليل بعد الآن مثل الربط (conjonction): «ب» تنتج «س» كعلامة خاصة بـ«ي» (E produit x comme signe de y) و«ر» يستقبل «س» مثابة علامة «ي» (R reçoit x comme signe de Y)، ولكن يصبح (أي الدال): S1 (س1) و S2 (س2) يتعاونان بوساطة أفعال اللغة والمواجهة الإبستيمية لإنتاج x (س) كعلامة لـ«y» (ي). (F. Jacques, 1985, p. 209).

فإذا ظهر كل متكلم تباعًا حاملًا الصوت، فإن الاثنينية (La dyade) الخاصة بالمتخاطبين والتي تتشكل من واقعة العلاقة يمكن



لها المطالبة بوضع «فاعل القول» (sujet de dire). تشير الحوارية إلى البنية الداخلية للخطاب بوصفه مُنتجًا بين سلطات التلفظية في علاقة خطابية متبادلة (relation, interlocutive) ولفائدة الاثنينية المتولدة على هذا النحو.

من الحوارية إلى الحوار

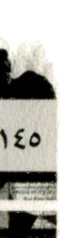
كل خطاب هو في جوهره حواري. إنه شرط التواصلية نفسها. بيد أن الخطابات المختلفة ل تلتزم بنفس الدرجة الموجبات الحوارية. فمع الحوار تبلغ أعلى درجة من ثبات البُنية؛ فهنا، في الواقع، تُحترم تمامًا التكافوئية (La parité) والتبادلية (la mutualité et la réciprocité) الخاصة بالسلطات [أو المجاري التلفظية (des instances)]، بما يسمح بتشكيل جماعة فعلية المعنى والإسناد (المرجع) والقوة (الفعل) لمصلحة الاثنينية. خصائص الحوار هذه سيكون لها بطبيعة الحال أثر على البُنية الدلالية-التداولية للملفوظات التي تقبل بها، وعلى تسلسل المقاطع التي تجيزها. وعلى هذا الأساس، فإن الحوار يتعلق أكثر بمقاربة تقنية تشبه أي استراتيجية استدلالية، ومن دون أي ميزة تفضيلية. ولكن الخصائص البارزة التي يُظهرها لا تسمح حتى الإقرار له بدور تأسيسي مكان الخطاب البشري في شكل عام.

نحو أنتروبولوجيا علائقية

إذا لم أستطع أن أدل (signifier) كلية إلا معكَ، وإذا كانت الحوارية تؤسس قبليًا (a priori) إمكانية الخطاب نفسه، وإذا كانت العلاقة الخطابية المتبادلة (la relation interlocutive) مكونة من عباراتها (Constitutive de ses termes) حينها يجد سؤال الفاعل نفسه

وقد تحول: فبقدر ما تكون العلاقة الحقيقية فهي لا تربط «أنا» (Je) و«أنت» (tu) قد سبقتها في الوجود، ولكنها تشكل «نحن» (Nous) لا يمكن اختزالها: «نحن» التبادلية حيث تتأسس من خلال التجربة بين الأشخاص (interpersonnel) نقطة عبورنا إلى الشخص (la personne).

ترافقها نتيجة من بين نتائج أخرى تقول إنه من الآن وصاعدًا وفي العلاقة الخطابية المتبادلة وفي القابلية للحوار تنعقد هذه الجماعة من الأشخاص، وفيها تأتي الأتيقا (L'éthique) لتبسط نفسها. إن معيارية القانون الأخلاقي (la loi morale) تتبدى بالنسبة لنا في المبحث القيّمي للحوار (L'axiologie du dialogue)[3].



هوامش

(1) في كتابه: l'espace logique de l'interlocution (Paris: PUF, 1985).

(2) interlocution = سيرورة توليد الملفوظ بين المتخاطبين. المترجم.

(3) Axiologie = مصطلح حديث يراد به البحث في طبيعة القيم وأصنافها ومعيارها ووضعها الميتافيزيقي، وترتبط نظرية القيم خصوصًا بعلوم المنطق والأخلاق والجمال والإلهيات. انظر، مراد وهبة، **المعجم الفلسفي** (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1979)، الصفحتان 41 - 40. المترجم.



المترجم في سطور

عفيف حيدر عثمان

- مواليد العام 1956 في الشياح (بيروت، لبنان).
- أستاذ في الجامعة اللبنانية، كلية الآداب - قسم الفلسفة، الفرع الرابع منذ عام 1993.
- عضو في الاتحاد الفلسفي العربي.
- له بحوث وترجمات منشورة في دوريات متخصصة.

صدَرَ له

- **النظر يأتي قبل الكلام، موجز تاريخ الفن الغربي** (بيروت، دار النجوى، 2007).
- **ترجمات (1): العولمة، الدين، إسرائيل** (بيروت، مركز الدراسات الاستراتيجية، 2007).
- **ترجمات (2): أ. باث، ب. بيكاسو، ب. هاندكه، و. بنجامين، أ. موران** (بيروت، دار النجوى، 2007).
- **ترجمات (3): الماء في القرآن، أوديب والقانون...** (بيروت، دار النجوى، 2007).

ترجم

- **ولادة الفلسفة، جيورجيو كولي** (بيروت، دار المعارف الحكمية، 2016).

■ سلسلة دراسات غربية ■

■ أنا وأنت

مارتن بوبر؛ ترجمة علي محمود مقلّد.

١٢٧ صفحة، ٢١/١٤ سم.

■ فكرة القدسيّ

رودولف أوتو؛ ترجمة جورج خوّام.

٢٧٤ صفحة، ٢٤/١٧ سم.

■ فلسفة الدين

جون هيك؛ ترجمة طارق عسيلي.

٢١٤ صفحة، ٢١/١٤ سم.

■ نحو إسلام أوروبيّ

أوليفيه روا؛ ترجمة خليل أحمد خليل.

١١٧ صفحة، ٢١/١٤ سم.

■ الخيال الخالق في تصوّف ابن عربي

هنري كوربان؛ ترجمة خليفة علي خليفة.

٤٥٠ صفحات، ٢٤/١٧ سم.

■ الخلاص المسيحيّ: اتّجاهات أربعة في عالم تعدّديّ

مجموعة من الباحثين؛ ترجمة ديما معلّم.

٤٤٠ صفحة، ٢١/١٤ سم.

■ ولادة الفلسفة

جيورجيو كولي؛ ترجمة عفيف عثمان.

١١٢ صفحات، ٢١/١٤ سم.

■ جوهر الدين

لودفيج فويرباخ؛ ترجمة وتقديم أحمد عبد الحليم عطية.

١٧٦ صفحة، ٢١/١٤ سم.

■ فلسفة اللغة

إريك غريلو؛ ترجمة وتقديم عفيف عثمان.

١٥٢ صفحة، ٢١/١٤ سم.

فلسفة اللغة

يعتبر هذا الكتاب لـ"إريك غريلو" من الكتب الأساسية التي أوضحت معالم فلسفة اللغة، فهو مصدر لا بد منه لكلّ من يريد أن يتعرف على هذا الفرع المعرفيّ، حيث يُظهر كيف تطورت العلاقة بين اللغة والفلسفة، من علاقةٍ جانبيةٍ، تقارب من خلالها الثانية الأولى من خلال العلاقة مع موضوعات أخرى، أو بالانطلاق من أواليات اشتغاله الداخلية، إلى فرعٍ معرفيٍ قائمٍ بذاته، أنتجه "المنعطف اللغوي"، الذي تتضافر فيه شروط ثلاثة: أولها طرح سؤال اللغة جذريًا؛ والثاني الرغبة في قاموس تأويلي جديد؛ وأما الثالث فالتواطؤ المعرفي على إشكالية واحدة. فالكتاب بحدّ ذاته ضرورة لكلّ طالب يريد التعرف على هذا الفرع المعرفي، فهو، على صغر حجمه، يقدم مادةً غنيةً عن تاريخ الفرع وأبرز مراحله المنهجية، ففيه يعود بنا الكاتب إلى البدايات، ويعقد المقارنات، مما يجعل منه كتابًا يستحق الترجمة، خاصةً في ظلّ افتقار المكتبة العربية إلى مثل هذا النوع من الكتب التخصصية، التي تعمل على الموضوع بحصافة ومعرفة دون أن تُغرق نفسها في همّ الإطالة والإسهاب.



ISBN 978-614-440-104-0

